زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: عونك يابه
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
تدقيق لغوي ومراجعة: حذيفة محمد نعسان

الطبعة الأولى 2017 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع: 7371 /2017
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

عونك يابه

زهير أبو سعد

إهداء

إلَى ذلك الرّجُل ..

الذي طُوى حلمهُ تَحتَ التّراب ..

إلَيها وَحدَها ، حبة القمحِ التي دُفنتْ تحت التراب فأنجبتني كاتباً.

أبي الحَبِيب ، أمّي الغالية ، ليتكما هنا لتقرآ ما خطت يدي

كِذبةٌ عَظِيمة ألفوا لَهَا الكُتب ..

وجَيشوا لعَينَيهَا العَواطِف، وأشَرعَوا لأحَلامِهَا نَوافِذَ الأوهَامِ، ولم يَكتفُوا بِذَلَك أبداً .. !

بَل سَهِروا اللَيالي على ذمة الإنتِظَارِ، يَتَرقَبونَ مَجيء سَحَابَةَ صيفٍ، أو آثار مَسيرٍ تَدلُ على مَلامِحِ إيابِهِم، حَتى ذَبلَ كُلَ شَيء .

كُنتُ أقولُ لهُ دَائِماً ..

عُد سَيدِي إلى فِراشِكَ ..

نَم في سَرِيرِ خَيبتِكَ كمَا يَنَام اليَتَامَى ..

وأغلقْ خَلفَ انكِسَارِكَ شَاهِدَة القبرِ التي كتبَ عَلِيها :

لا تَعودوا، وكُونوا سَراباً، ولو عُدتُم لَوجدتُمونَا ضَباباً ..

إنَ الهَزَائِم العَاطِفِية التي سببتها خَيَانَاتٌ أُنثوية لَحِقَت بِكَثِيرٍ من أهلِ الهَوى وخُصوصاً فئة الشَباب من بَنِي أُمتنَا، وأقَصِد بِأمتِنَا أُمةَ الحُبِ، كُل هَزِيمَة قَلبِية وَاحِدة تُعادِلُ حَرباً بِأكمَلِهَا قد خَاضَهَا رِجَالُ الوَغى لاسترجَاعِ أرضٍ ما ..

ولَكنَّ فِطَنةَ قَلبِ الرَجُلِ تَضمحلُ في حَضَرةِ الأُنثَى، وإنَّ هذا لأمرٍ ينَدى لَهُ جَبِين الرَجولة ..

أعَلمُ بِأنَ هُنَالكَ قِسمٌ كَبَيرٌ من الإنَاثِ في هَذَا العَالم قَد عانى من الظلم أو القهر، وهذا يعتمد على عَادَاتِ وتَقالِيدِ، أو أعَرافِ ودِيَانَةِ القِسِمِ الجُغرافِي لِلبِلاد التي تَعَيش فيهَا المَرأة ..

ولَكن في المُقَابِل لا ننكر أيضاً أن هنالك فِئةً كَبَيرة منَ الذُكُورِ قد ظُلِموا عَاطِفِياً، بِأحكَامٍ أنثَوِية فِيهَا شَيء منَ الغَدرِ أو الخِيانة ..

حِكَايَاتٌ وَاقِعِيةٌ، وقِصَصٌ على مَسامعِ البشرِ تُتْلى آنَاءَ اللَيلِ وأَطرافَ النَهَارِ ..

ذَاتَ طَرفٍ من أطَرافِ المَساءِ كُنتُ أبحثُ في مَكتَبتِي عَن ديوان (عَلقَمة الفَحل)، فَبعضُ الأفكَارِ طَاردتنِي، وأوحَتْ إلِيَّ أن أتصَفحَ دِيوانهُ ..

وعندما دلفتُ لأسحبَ الدِيوانَ من رَفِ المَكتَبةِ، بدأ هاتفي يرنُّ ..

أوه مَن يتصلُ بي فِي هذا الوَقت المُتأخر مِن الليل!

ـ ألو مسَاء الخَيرِ ..

صَوت أعرِفُهُ، فِيهِ شَيءٌ من قَمحِ حوران، من سُهولِهَا وهَضَابِهَا ، من حِجارَتهَا السَوداءِ، من مُدرجَاتِهَا و أسَوارِهَا الرُوَمانِية ..

ـ مَسَاء النُورِ .. مَن المُتَكَلِم !؟ ..

ـ سَامَحَكَ اللهُ يا أُسَتاذ زُهَير، لا بل أُرِيدُ أن أقول لكَ زُهَير فَقط، هَل نَسِيتنَي يا رجل !؟ ..

ياااه .. مَا أجملهُ من صَوتٍ، صَوتٌ رِيفِي لا يأتيه النفاقُ من بين يديه ولامن خلفِه ، لُغةٌ كَانتْ تَتَحدثُ بِهَا أُمِي ..

أُمِي يا أُمَّ السُهولِ ..

جَمِيلةٌ، مَلِكةٌ، شُجَاعَةٌ، و في آخرِ حَلقةٍ كَانت شَهِيدة ..

هُنَاكَ أصواتٌ مَهمَا بَلغَ بِكَ الجَاهُ أو المَال أو المَنصِب، إلّا أنهَا تُعرِيكَ وتُعِيدُكَ طِفلاً إلى حُضنِ أُمِكَ، تُعِيدُكَ ذَاكَ الطِفلَ الشَقِي الذِي لم يَترُكْ زُجَاجاً إلا كَسَرهُ، لم يَدع طِفلاً

إلا تَشَاجَر مَعهُ ، ولم يَرْ هِرةً إلا ولَطمهَا بحَجرٍ، ولم يَترُك حَيًّا إلا مَشَى بِهِ ..

هَذهِ الأصوات بِالتَحِديد أنتَ مُعلقٌ بِهَا مَدى الحَياة، رُغَم مَحبتكَ أو بُغضكَ لَهَا فَأنتَ على قَيدهَا، لَيسَ لأنَكَ جُزءٌ منِهَا .. كَلا .. !!

بَل لأنَهَا جُزء منِكَ، و من ذَاكِرتِكَ ، فَمهَما جَرّبتَ أن تَتَقَنّع أو تَتَلونِ أو تَتَنَكرِ، فإنك سَتنهَارُ في لَحَظِة ضَعفٍ أمَامَ مَاضِيكَ والأصواتِ المُترعَة في ذَاكِرتِك .. هَيَ اللحَنُ الوَحِيد المُرافِقُ لَكَ ..

أنتَ ابنُ الرَيف الحورانِي ..

لن تَستَطِيع مُقَاوَمة رَائِحَةَ دُخَانِ الصَاجِ، ولا القَهوة العَربِية المَغلِية مع الهَيل، ولا ندى الصباح، ولا لُيونَة التُرابِ الخصَبِ، ولا غَفوة الخُبزِ الصَادِرة من بَينِ البيوتِ العَامِرة بِطِيبَةِ أهلِهَا ليس بالحِجَارة والأسوار ..

ولأنَكَ ابنُ حوران، فَأنتَ في مَكَان مُخَضَب بِالبَركة .. إقلِيمٌ لو زَرَعتَه حَطَباً لَحصَدتَه ذَهَباً ..

نَسيَ أو تَنَاسَى التَارِيخ أن يَكتُبَ على أعَتابِ تِلكَ الأرض :
هَذهِ أرضُ البَركَة ..

إنهَا لَيسَت مَحضُ مصادفة، ولا مُدَاعَبَةُ قَدر، بَل إنهَا حَقِيقَة، وحَقِيقَة لا مَفَر منِهَا، لَقد حَصَدَ التَارِيخُ منِهَا مَا حَصَد، وأجمل مَا حَصدَ منَها العِلمَ والعُلمَاء كَأمَثالِ :

ابنِ القيمِ الجَوزِية، وابنِ كَثَير، و الإمَامِ النَووي، والعز بن عَبدِ السَلام، والشَاعِر أبو تَمَام وغَيرهم كُثر ممن لا يتسع المجال لِذِكرِهم هنا من ثوّار وسِياسِيين ووُجَهاء وشُعَراء، حَتى قَال شَاعِرُ الأُردُنِ ، مصطَفى وهبي :

بِحورانِ اجعلوا قَبري لَعَلّي
أشمُ أرِيجهَا بَعدَ الفنَاءِ ..

ـ أبو سَعد .. هَل تَسمعُنِي !! ..

ـ آسف أنَا معَك، ولَكنني لم أعرف حتّى الآن مَن يُكلمُني !! ..

ـ ها ها ها ها .. أسعَدَ الله سِنَكَ يا أبا سَعد، إشتقتُ لكَ كَثَيراً، مَعك صَالِح الحَرِيري، صَدِيقُ الطُفُولة، هَل عَرفتَني ؟؟ ..

على رُفوفِ الذَاكِرة كَثَير من الفَاسِدِينَ لم ألتقِ بِصَالحٍ منهُم قَط مُذ أن رَكلنِي رَحِمُ أُمِي إلى هَذهِ الحَياة، ولَكن فَكر جَيداً يا أبا سَعد .. من تراه يَكون هَذا الفَتى ! ..

ـ لَعَلّك لم تَذكُرنِي، الحقّ معك، فالغُربَةُ تُنسِي الشخص حَليبَ أُمه، بل قد تُنسِيه مَا شَرِبَ يَومَ أمس، ولَكن سَوفَ أُقرّبُ لَكَ حَدثاً قَرِيباً، مع أنَنَا التَقينَا في الأرُدن مَرة أُخرى، ولكن هُنَاكَ في ذِراعِكَ اليُسرى أثر لضَربة حَجرٍ، جَعلَتْ فَوقَ سَاعِدِكَ ثَلاث قطَبٍ يَومهَا، هَل تَذكر من ضَربكَ !! ..

ـ ها ها ها ..الويل لك أيها الشقي ..

ـ هَا هَا هَا .. لا زِلتَ كَمَا أنتَ حُورانِي بن حُورانِي، الحَمدُ لله ، أهذا يعني أنك عرفتنِي ؟؟!!..

كَيفَ لك أن تَنسَى جُوعَ دَهرٍ، وكَرامة بَطنٍ، ورِفَقة أهلٍ، وصديقاً أغلى مِمَا تَتَصوّر ..

إنهُ صَالح الحَرِيرِي، لَم يَعرف أُبَهَةَ الأحَلامِ الأرستقَراطِية التي تَتَحدثُ عنهَا الكَاتِبات، ولا وَاجهات المَتَاجِرِ الفَرنِسِية التي تَكتُبُ عَنهَا السَخِيفات، ولم يَتَصَنع لِقَدرِهِ، ولم يَخنع لِقضَائِهِ، إنهُ رَجُلٌ كَمَلايين الرِجَالِ الذِينَ لم يُحَالفْهُم الحَظ بَعد تَخرُجهِم ولا بأي وظيفة، كَرامتهُ أبتْ أن يُجَالسَ النسَاءَ الثَرثَارت في المنَازِلِ، ولَكنه جَالسَ جُهدَه وتَعبهُ في كَسبِ لُقَمةِ الحَلالِ .

لُقمَة الحَلال ..

تُطَلق هَذهِ التسمية على وَحلٍ مِن التَّعب ..

لها آثارٌ جَانِبية، فهي تَظهر بعدَ مَرحَلة مِن الزَّمن، وتّتضح مَلامحُهَا علَى قِسم مِن بَني البَشر قد ذَاقوا من وَيل الأيّام ما ذَاقوا ..

وُجوهٌ مُجعّدة، وجُلود مُترهِّلة، وشِفاهٌ مُتخشبَة، وأكفٌّ مُتشقّقة، كلّها دَلالَات تَقودُك إلَى تعرية هَذه الدُّنيا من أثوَاب الّراحَة ..

اسألْ تِلك العُيُون التي افترسها التعبُ، اسأل تِلكَ الكَلِمات التي أجهَدها السّير علَى دَربِ القافِية، أجْسادٌ واقِفة أمَام مهبّ الصَمت، نحيلَةُ العُروقِ قد تلقَّتْ الإيمانَ وِراثةً، فهِي التي لا تعرِف مِن ميزانِ الله إلّا جُملتين :

يا فتّاح يا عَليم، ويا رزّاق يا كَريم .

لَو أنّ لكَ كسرَة خُبزٍ في بَطنِ الحُوت سَتَكون مِن نَصيبك.

لَو دقّقتَ في المَواطِن التي قَذفهم إليها القَدر في مهبّ ريح الجُوع، وأمعَنت في حَال المُتسابِقين والمُتسلّقين على حَائط

الأرْزاق، لوَجدتَ الكثير مِن قصص الحبِ التي تَبخَّرت، والكثير من بِدايات العِشقِ التي تلاشَت ..

وحدهَا لُقمةُ الخبزِ والجَري وراء ذرّاتِها كانت كَفيلَة بأن تَجعَل من الغَارِق في الأوهَام حيرَاناً، هُناكَ في مهبِ الجُوع في كَوكبٍ يُسمَّى كَوكَب الحَياة، تغفو قاراتٌ بأحمَالِها وأحلَامِها علَى سَطحِ الأرضِ، مُمزّقةً بِأفكارٍ وأوهامٍ وأديَانٍ وخُرافاتٍ.

ومَصدرُ هذه التفاهات مَخلوقاتٌ تَسعى وَراء لُقمَة خُبزٍ، مخلوقاتٌ يُطلَقُ علَيها بَني البَشر ..

أكْبرُ الكَوارِث التي تَدُورُ في عقولهم وأكثر مايفكرونَ به هو الشَبَحُ الذي أودى بِحياة الكثِير مِن النّاس ألا وهُو الجُوع، وفي حَضرة الجُوع تَموتُ الحِكايات، كَأحادِيثِ الهَوى، ولِأن هُناكَ الكثيرُ مِن الأقْلَامِ التي نَحَتتْ رِوَاياتَ حُبّ أرستِقرَاطية أقرَب إلَى الغُرور، وأبعَد عن الوَاقِع، صَارَ لِزَاماً عَلينَا أن نُعِيدَ رسمَ الزَمنِ الجَمِيل الذِي كُنَا

نَجتَمِعُ فيه حَول مَائِدَةِ الطَعَامِ كَقِطَطٍ صِغيرة وَقعت على صَدِر أُمِهَا ..

ولأنَنَا مَجبولِونَ من طِينَةِ الأحلامِ، و مَبنِية تَجاربُنَا على أسَاسَاتِ الذَاكِرة، فَأنتَ مُعَلقٌ لا مَحَالة على مِشجبِ العَودة إلى المَاضَي ..

كَانت الأحَلامُ صَغَيرةً، نَرى فِيهَا هَذا الكَون من خلال شَاشَة صغيرة تظهر الأشياء بِاللونِين الأسَودِ والأبَيضِ فقط، كَان النَاسُ يُطلِقونَ عَليهَا شَاشَةَ التِلفَازِ ..

كُنَا نَعبُرُ الأحلامَ عَبرَ بَرامِج بَسيَطة، وكم كانت سعادتُنا بسيطةً حينها، بعيدة عن تعقيداتِ التكنولوجيا والشبكة العنكبوتية، كنّا نَجتمعُ مع الأحَبة تلفُّنا المودةُ، مُنصِتِين ومتابعين بشراهةٍ لمَا يُتَلى على لهفتنا آنَاءَ اللَيلِ وأطَرافَ النَهَارِ ..

كَانت تَأتي إلينا جَارَتُنَا الأرمَلة، والجَارة المُطَلقة، والجَارَة التي غَادَرهَا زَوجُهَا قَبلَ سَنة ونِصَف إلى إحَدى دُولِ الخَلِيج لِيجمعَ ثمنَ لقمةِ الخُبزِ، وبَعض النِسَاءِ العُنس ..

في ضِيافَةِ الثَرثَرة والغِيبة والنَمِيمَة، يَكَادُ دِماغُكَ يَنفَجر من الأصواتِ التي لم يَجف ضَجِيجُهَا ..

لم نَكُن نَعلم بِأنَ سَعَادَةَ أُمِنَا لم تكن لتكتمل إلا بِوجودِ تِلكَ الخَلِية من الثَرثَارات حولها، ولم نَكُن نَعَلم بِأنَ هَذهِ الخَلايا التي لا تَتعب منَ الإدلاءِ بالكَذب إنما هِيَ مِحورُ دَورانِ الأرضِ وبَركَتهَا ..

بَعدَ فَنَاءِ آلةِ الطَحنِ والعَجنِ والصَخبِ المَصحوبِ بِالكَذِبِ، يأتِي أبِي في سَاعَة مُتَأخِرة من اللَيلِ مُرهَقاً من السَهَرِ في مَضَافَةِ أبي سَالم مُختَار العَائِلة وأكبر مُنَافِقِي البَلد ..

كُنتُ مُقتَنِعاً تَمَاماً بِأنَ هذِهِ البُقَعة الصَغَيرة التي لا تُرى بِالعَينِ المُجَردة من فوق طَبقاتِ الفَضَاءِ، لا يَجتَمعُ أُنَاسهَا إلا على وَحلِ الكَذبِ والقِيل والقَال ..

مَا إن دَخلَ أبي المِنزلَ وخلعَ سروالَ العمل، وارتَدى سروالَ المَنزِلِ، حَتى تَأهَبَ المَنزِلُ بِرمتِهِ، كُنتُ أقولُ في نَفسِي بِأن هذا الشعور هو ما يسمى بهَيبةِ الدَارِ، والتي كانت تمَثلها رَهَبةُ الرَجُل الذي تُطلقُ عَلِيهِ أُمِي :

عَمود الَبَيت ..

كَانَ الحُبُ مَفقُوداً، والخَوفُ هُوَ الإحساس الوَحِيدُ الذِي هَزَّ قُلوبَنَا، فعندما يجلس أبي أمَامَ شَاشَةِ التِلفازِ في السَاعة التَاسِعة بِتَوقِيتِ أخَبارِ الجَمهُورِية العَرَبِية السُورِية كعَادتِه، لا تَسمع لأفواهِنَا هَمساً ..

وَالدِي هُو ذاك الرجُل الذِي أنجَبَ من أُمِي خَمسَة فِتية وثَمَانِي فَتَيات، وأنَجبَ من زَوجَتِهِ الثَانِية ثَلاثة فِتية وفَتَاتَين، وَالدِي ذُو الشَارِبَينِ الكَثين واللحَيةُ التي يَحلقهُا بَعدَ كُلِ صَلاةِ فَجرٍ، والمِعطَف العَسكري الذي يَرتَدِيهِ صَيفاً وشِتَاءً، والسروالين الأسودين اللذين يُبَدِّلُ بينَهُما في كُلِ مَنشَرٍ ومَغسل، والكوفية العَربِية المُحَاكة بِاللونين الأبيض والأسْود، هو صاحب الهُدوءِ المهِيبِ خَارِجَ أسوارِ مَملكَتِهِ، والغضبِ البركانيّ في أكنَافِ بَيتهِ ..

كُنتُ أقُولُ دَائِماً لِمَ كُل هذه القَسوة التي تَغْلي بَينَ حَاجِبَيهِ، فالكُلُ يَخافُه ..

نِسَاؤهُ، وأولادُهُ، وبَنَاتُهُ ..

لم أرَهُ يُقَبّلُ أحداً منَا أبداً، في حَضَرتِهِ كُلنَا كالخَدم لَه، ومع كُلَ ذَاكَ الفَقر الذِي عِشنَاه، إلا أنَنَا من شدة ما عشناه من الخَوف لم نَعِ بأنَنَا فُقَراءُ، فالرُعب والخَوف كان قد أنسَانَا مَرارةَ الفَقَرِ ..

لَقد كَانت أحكَامُ أبي جَاهِزةً، وقَراراتهُ صَارِمةً، في كُلِ المَواسِم، حَتى أنَنَا كُنَا نُعلفُ كَالخِرافِ قَبل مَوسمِ الذَبحِ ..

إنَ الطاعة في كُلِ شَيء كَانَ أمراً مَفروضاً، وأيّ مُخَالفَة في حَرمِ أبي كَانت عُقوبَتهَا الضَرب بِالعِقال حَتى يَتورمَ جِلدُ العَاصِي ويَعودَ إلى طاعة أوامر أبي، فقَراراتُ أبي كَانت عُقوبَة مخالفتها قَاسِيةً جِداً ..

فَهوَ الذِي لم يَصَفحْ عن أنثَى سَارت بِعكَسِ عَقارِب ما يهوى، فَكَيفَ له أن يَصَفحَ عن فَتى! حَتى لو كَان من صلبهُ، فَالبَيتُ الحَجري ذُو الجُدرانِ الطينية، الذِي بنَاهُ بَيدهِ كي يَتزوجَ بِهِ ويُنجبَ من شَهوتِهِ قَبِيلةً من البَنِين والبَنَات، فِيهِ من الأكوامِ البَشَرية والأحَلامِ المُهَمَشة مَا يُؤرقُ القُلوب ..

ومَا إن أخَرجنَا وَالدِي إلى مَوسِمٍ زِراعِي حَتى أدخَلنَا إلى مَوسِمٍ آخَر، والأرض بِالنِسَبة لَهُ هِي كُل ثَروته التي لا يَمَلك غَيرهَا، وفي كُلِ سَنة تَكبُر مساحة أرضه بِمقدار دُنُمٍ أو دُنُمَين، وكُلَمَا اتسَعت الأرض .. اتسَعَ معَها التَعب والشَقاء، ولِكُلِ مَوسِم لَعنَتهُ الخَاصَة بَهِ ..

قِطَافُ الزَيتون يستمرُ لشَهرَين كَامِلين، وحَصَاد القَمح لثَلاثة أسَابِيع، أما سقايةُ الأشَجَار فتمتدّ لثَلاثة أشهر، وكذلك نَزَعُ الأعشَاب الضَارة وتقليمُ الشَجر يحتاجُ لشَهرين، وحَفرُ الأرض وحِراثَتُهَا أيضاً يتطلّب شهراً كَاملاً ، ولَنَا في تعبئة أكَياسِ القَمحِ والزيتون وتحميلها مَا يقَصِمِ الظَهر ويفني الجسد ..

لُقمةُ الحَلال ..

كَلمة قَد سَمعنَاهَا و نَحنُ في أرحَامِنَا ..

لا تسألْ كَيفَ سمعناها، أو من أخبرنا بها؟..

ولا تسألْ كَيفَ يَعرفُ المَرءُ لُقمَتَهُ إن كَانت منَ المال الحَلالِ أو من المال الحَرام ..

تَسمياتٌ عِدة تَضبط إيقاعَ الإنسَانِ الذِي ولِدَ منَ تَعبِ الأرضِ وزفراتِها ..

فَقَط لأنَكَ من بِيئة رِيفِية، فَألسِنَةُ البَشَرِ لن تَرحمك أبداً، لأنهَا مَجبُولةٌ على الثَرثَرة ومفطورة على النميمة.

وعِندَ وقُوعكَ في مأزقٍ، وبالأخصِ إن كَانَ المَأزقُ يُخَالفُ عَادَاتَ وتَقَالِيدَ أهل القَرية أو أهَل الريفِ، فَالخَبر سَينتَشرُ في غُضونِ ثَوانٍ معدُودات كانتشار النار في الهشيم، وسَتفقِدُ السَيطرة على أفواهِ البَشَرِ ونَواياهم ..

أنتَ .. ولأنكَ أنتَ ..

كَنُطفة رِيفِية لا يُحسبُ لهَا على أرضِ النِفاق حساب ..

أنتَ دَائِماً مُلاحَقٌ بِالنَظَراتِ، وتَطفُلِ الآخَرِينَ، وستجد الحَسَدَ والحِقدَ يَتتبعَانكَ مَا دُمتَ تَمشِي أمَامَ عتبات بُيوتِهُم البازَلتِية ..

أينَ أنتَ يا حُب !؟ ..

أنتَ على أرضِ حوران يا حَبيبي ..

يا أهلاً بِكَ في أرضِ الضيافَة ..

النَاسُ هُنَا مَبلغُ عِلمها بأخبارِ البَلد حُدودَ نَصَيب والتي تقع بَينَ الجَمهُورِية العَربية السُورِية والمملكة الأردنية، ومنُتهَى الجَهل عِندهُم يقع عند أطراف مدينة الكسوة في رِيفِ دِمشق ..

احتَارَ أهل العِلمِ بسبب تسمية حوران بهذا الاسم ..

و لَكن بحسَب خِبرَتي بِطباعهم، ولأنَنَي فَردٌ من بَنِي عَشَائِرهم، فَهُم دَائِماً في حِيرة من أمورِهم، وحَتى في حِيرة من خَطواتِهِم وقَرارَاتِهم، و هَذا والله لا يُعَدُّ غَباءً .. بَل يُعَدُ حِكمة وحِنكة فيما تَقتضِيهِ المَصلحَة الشَخَصِية أولاً والمَصلحة العَامة أخيراً ..

ودَائِماً تَكون النِهَاياتُ مَأسَاوِيةً ..

فَهوَ الإقلِيم الذِي لم تَقُمْ لهُ قائِمةٌ مُذ أن كَورَ اللهُ الأرضَ ومن عَليهَا ، ولم تُرفع على أرضه راية دَولة مُذ أن تَكَالبت عَلى إقِليمهِ الأُمَم، فَفَيهِ منَ الطيبَة ما يُربِتُ على كَتفِ التَارِيخِ والمُستَقبل، ويَهمس في أُذُنِ الأجَيالِ:

لا زَالت الدُنيا بِخَير ..

نَعم الدُنِيا لا زَالت بِخَير، وذلك بِفضل إيمَان العَجائِزِ والفِطرةِ السليمة لعَقَائِدهنَ والتي لم تَتَلوث البَتة ، فَالحُبُ في شريعتهَا حَرامٌ حَرامٌ حَرام، وإنّ إخراجهُ منَ القَلبِ إلى اللسانِ جريمة شرف قد تؤدي بحياةِ من يرتكبُها، لأنَ إطَارَ القِيمِ لم يَسمحْ بعد بِأن يُمَارسَ الحُبُ علناً كمَا آل إليهِ الحَال في بَعض المُدن السُورِية كَالسَاحِلِ السُورِي على سبيل المثال ..

فَفي حوران .. الشَرفُ مُقَدسٌ بَينَ الأهلِ و الخُلان، وشَيء لا يُستَهَان به أبداً .. ومَا من أحدٍ مَسَ شَرفَ أو عِرضَ

إحدى فتيات أولئك القَوم حَتى لاحَقوا غَرِيمَهُم، وقَتَلوهُ شَرَ قِتَلة وجَعلُوهُ عِبرة لمن يَعتَبر ..

فَكم وكم من عِبرٍ طَوَاهَا الُتراب، و غَيبهَا المَوت، ولو سَألتَ تِلكَ الجَمَاجم الهَامِدة، لَقالت لَكَ :

نَحنُ ضَحايا الشَرف .....

آلُ الحَرِيري في حوران ..

إحدَى العَشَائِر العَظِيمة التي ولدَ منِهَا بَطلُ رِوَايتنَا ومحدّثُنا صاحب الذاكرةِ الأقوى من الحِجَارِة البَازِلتِية التي تَحمي حِمى حوران و سُهُولهَا ..

مئةُ آهٍ من رِجَالِهَا، وخُشونَةِ أكُفِهم، ولُيونَةِ مَشَاعِرِهم، ومُرونَةِ قُلوبِهم، وألفُ آهٍ من نِسَائِهم، وصِدقِ وَلائِهنَ، ودَمَاثَةِ أرواحِهنَ، وقُوةِ إخَلاصِهن، فَالمَرأة في حوران بمثابة ألفِ رَجُل ..

و كَيفَ لا تكون النِسوةُ بقوةِ الجِبالِ، وهُنَّ من أنجبنَ أولئك الرِجَالَ العظماء، والعُلمَاءَ الجهابذة، والثُوارَ الشُجَعان

الذِينَ ما زَالوا إلى هَذهِ اللحَظة يُسَطرونَ بِدِمَائِهم أعظمَ قِصَص التضحية لتكون عبرةً للتَارِيخِ والأجَيالِ ..

حوران يا أُمَ اليَتَامَى ..

أرضٌ تَنزِف في كُلِ دَقَيقة صَمتٍ عَالمِي، حَتى طافتْ فيها السُجونُ والمَقَابَرُ والمنَافِي بأبنَائِهَا، أسمَاءٌ نُحتتْ على صُخورِ المَقابِر، وشُبابٌ بِعُمرِ سنابل القَمحِ ما قَبَل الحَصَاد قَد اختَفوا، ولأنَكَ من أهلِ هَذهِ البَلد، فَلا يَجوز لَكَ أن تَسألَ عن الأسماء التي عَانقها الغيابُ.

وأحد هَؤلاءِ الذين طال بهم الغيابُ، والدُ صديقي صالح الحريري الذي سيَروي لنا قصةَ أبيه

ولدَ صَالح الحَرِيري في بُصر الحَرير التي تَقع في شمال مَدِينةَ دَرعا، وفي الجَنوب من العَاصِمة دمشق، و كَمَا قَرأتُم آنِفاً فَإنَ بطَلنَا عَاشَ في كنفِ عَائِلة فِيهَا من الشِدة والغِلظة مَا يَجعلُكَ تَصرَخُ بِأعلى صَوت وَجعك ..

أراد أبو صَالح لأولادِه أن يعيشوا حَياةً كَرِيمةً، كما أرَاد أن يدَربَهم عَلى الحَربِ التي سَيخوضُونها مَع الحياةِ من

أجلِ كسب لقمة الحلال، إن التَعبَ الذِي لاقاهُ الفِتيةُ على أرضِ أبيهِم لَهُ في النَفسِ تَأثَيرٌ كَبير كنَحتٍ على جِدارِ الذَاكِرة يصعبُ مَحوه، لا بل يستحيلُ ذلك ..

الجَوعُ، و القِلةُ، و العوز، وأضِفْ إلى ذلك الدراسةَ، والعَمل المتواصلَ في الأرضِ، وطَاعَةَ الأبِ وتلبية طَلباته التي لا تَنتَهي على مَدَارِ العام ..

كَانت عُقوبةُ الأبِ صَارِمةً، و مُجردةً من الإنسَانِية، ولَكن صَدِيقِي صَالح كَانَ يَقول لَي:

لَقد جَعل مِنَا رِجَالاً، ومع كُلِ هَذا التَعب والإرهَاق، إلا أنَني أُحبهُ، وَلا أُحبّ أن أرَى بَعد هَذا العُمر من الشَقاءِ كلمةُ منه تُكسَرُ ..

و كُلمَا كَبُرنَا زَادت عَصَبيةُ أبي و صَرامتهُ، ولَكنه لا زَال يَحسَبُ نَفسَهُ قَوِياً كمَا كَان في السَابِق، لَقد أنجبَ من زَوجته عَائِشَة التي هِي أمّي وزوجته الأخرى سَميحة قَبِيلة من الأولادِ والفَتَياتِ ، حَتى لم يَعُدْ يميّز بَين أسمَائنا ، ومَع

ذلك بقي الجميع يَرتَجفون حَال مُرورهِ أو دُخولِهِ إلى المَنزِل ..

ورغم كل شيء أنا مَدِين لهُ بتَربِيتِي، لأنهُ من صنف الرِجَالِ الذِينَ لا يَرضُونَ بالهفوةِ الصَغَيرة، فَمَا بَالُكَ إن كَانَ الخَطأُ كَبيراً !! ..

أُمِّي ..

أُم صَالح الحَرِيري ..

تُحب أن يَدعوهَا النَاس بأمِ صَالح ..

امرأة كَبَقِيةِ النِسَاءِ في قَرِيتِنا، من صُنفِ العَبِيد على أرضِ الجَبابِرة، فَالإنَاث تُخَتنُ ألسِنَتهُنَّ كما يختن الذُكورِ ..

لا وجودَ لمُتَمرِدَاتٍ على الطَبقة الذُكُورِية ..

دَائِماً في حُضورِ أبي، أو جَدي، أو أحد أعمَامِي أو أخوالي كانت أمّي تَلتَزِمُ الصَمتَ، لَيسَ فَقط لأنَ صَوتَ المَرأة عَورةٌ في عرفِهم ! ، بَل لأنَه مِن المَمنوع إبدَاء الرأي مِن قِبل النسَاء في القَرارَات صَغَيرةً كانت أم كَبيرةً ..

فَالمَرأة لَيسَ لَهَا حقّ إبداء الرَأي إلا بَعدَ أن يَتجعدَ وَجهَهَا، ويَشيب شَعرُها، بعد أن تَفقِدَ زَوجَهَا، أو تَقطعَ السَتِينَ سَنة، فيظَهر المَرضُ على مَلامِحهَا ..

حِينها يحقّ لها أن تَفرض على جمِيع أفرَاد البَيتِ نُفوذَهَا، وأن تُفرِغَ جَام غَضَبهَا على كَنَتِهَا وبَعضِ العُصَاةِ من

أبنَائِهَا، لأنهَا وِلدت من تُرابِ حوران، وخَرجت من تَحت الرُكَام، لأنهَا عَرفت كَيفَ تُقَادُ الحِكمَةُ، لأنهَا سُنبِلةُ قَمحٍ غضّة، لأنهَا بِمَثابة ألف رَجُل ..

أُمِّي، يحْلو لها ارْتِداء لبَاسهَا التَقلِيدي المكوّن من الثَوبُ الحورَانِي المميّز، والشنبرُ، والعُصبة السَوداء التي تُلفّ حَولَ الرَأسِ، والحِذاء المَطَاطي الأسود ذُو النوعية الرَدِيئة، والحَقَيبة المُخَيطةُ يدَوياً، وكان على ذقنِها وَشمٌ مُنقوشٌ، ولكن بَعد أن حَجّتْ بَيتَ اللهِ الحَرامِ، أصَبحت تَستُرُ الَوشمَ بِرفعِ شنبرها إلى شَفتَيهَا، حَياءً منَ اللهِ ثُمَّ منَ النَاسِ، أمّا عن خُبزهَا فقد عَجزَ عن صُنعِهِ أمْهر الخبّازين، ناهيك عن مَذَاقِ قَهوتِهَا المُرّة .. فَنحنُ بَنِي البَشَر نَعلم عِلم اليقين أنَّ كُلَ شَيءٍ ذو مذاق مُرّ هو مادةُ صَعبة الإبتِلاع، إلا قَهوةَ حوران فَهي أشهَى منَ العَسَلِ، ألذُّ من مَاءِ السَلسَبِيل ..

دَعنِي أخبِرك أنَ النِسَاءَ هُنا لَيسَ لَهُنَ صَوتٌ إلا صَوتَ الخَوفِ، أُحبُ رباطة جأش تِلكَ المَرأة أمَامَ نَهِيقِ زَوجهَا

وتَمردهِ الغَيرِ مَقبول، أحتَرم كتمَانها لتِلكَ المَذَبحَة التي تَدور ورَاء الكَواليِسِ دَاخِل صَدرِهَا ..

ومَاذا تُرَاهَا فَاعِلة أمَامَ بُركَانِ الصُراخِ غَيرِ المَنطِقي الصَادِرِ عن غَضَبِ زوجِهَا !! ..

لَو أوكلوا أمره إليه لَجعتلهُ ذُبابة تَطؤها فتَجعلها تَحت بَاطنِ قَدمِهَا، الرِجَال هنا ترى فِيهم مِن الإنحلال الأخَلاقِي مَا يَجعلُكَ تَبصُقُ في وجُوهِهم ..

و لَكن بوجه من عَليها أن تَبصقَ هِي ؟! ..

آسَف لا بِوجهِ أحد ..

يُمّة .. هَكَذا كَانت تُحبُ أن أُنادِيهَا، وكنتُ أُلبّيها وأجلب لهَا كلَّ شيء تحبُّه، فهي تدرك بِأنَنَي بتُ الوَرقة الوَحِيدة في كتاب سَعادَتِهَا، لَعلَ جدي كان قد زَوّجهَا من أبي عنوةً، لقد أجبَروهَا رغمَ صِغر سِنها عَلى تحَمل هُموم العَائلة ..

تَقولُ لِي: لَقد زَفنِي أهلي إلى أبِيكَ وكان عُمرِي حينَذاك أربَع عَشَرَة سَنة، أي أنني لم أتجَاوز بعد سِن الطُفولة،

وكَانت العائِلاتُ في ذَلكَ الزَمَان ترمي الإنَاث لأولِ خاطبٍ يَطرقُ بَابَهم بهَدف التَحصِينِ والزَوَاج ..

لا رَأي للمَرأة في موضُوعٍ كالزوَاج فهُو موطِن مِن مَواطِنِ الرُجولة التي لا ينبَغي لهَا التدخّل فيه، و لا صَوتَ لَها أمَامَ القَرَاراتِ الجَائِرة، وإلى الآن لمْ أعَرف كَيف ارتَبطت هَذهِ العَائلات بِبعضِهَا !؟ ، أوَليسَ الحُبّ هُوَ الحَلقَة المَفقودة التي لم يَعشهَا أهلُ هَذه البَلد !! ..

و كَأنَ لِسَان حالنا يَقول بَصوتِ أُم كَلثوم :

حُبِ إيه اللي أنتَ جَاي تُقول عَليه ..

أنتَ عَارِف قَبله مَعنَى الحُبّ إيه ..

كَانت لِجَارتِنَا أُم جَابر الحَرِيرِي ابنة أجمَل مِن بَدرِ التَمَام، أوّلُ مَرة عَرفتُ اسمَهَا عِندمَا وَجّهتْ لهَا أُمهَا نِداءً بِصوتٍ مُرتَفع:

سَارة .. يُمَّة .. تَعالي أنَا في بَيتِ أُم صَالح

هَذا الكَلام الذِي أُحدِثُكَ بِهِ قد عشته حينمَا كُنتُ في مَرحَلةِ التَوجِيهِي، وقد كان أبي في ذلك الوقت لا يُرِيدُ أن

يَستوعِبَ أو يعي بأنَنَي في أهمِ مَرحَلة من مَراحِلِ حَياتِي، وأن هَذهِ المَرحَلة بِالذَاتِ هِي مَن سَتحَدِدُ قِبلةَ حَياتِي ووجهة مستقبلي ..

لم أكُن أخاف الرُسوبَ في المَراحِلِ الدِراسَية السابقة، و لَكنني كُنتُ أخافُ مواجهة غَضبِ أبي وحربه الضروس، وإنني حتّى اللحْظة لا أعرِف سِرّ نجَاحي السَابق في المَراحِلِ الدِراسِية بل وبِنَتَائِج عَالِية جِداً ..

كُنتُ بَعد أن أعودَ من المَدرسَة ألحقُ بِوالدِي إلى المَزَرعة، فأُعِينهُ على حَصَادِ لُقمَةِ العَيشِ، لأنني لا أُرِيد أن يَشَمت أحدٌ بِضعف والدِي، فقد كَانَ رَمزاً للشَجَاعة يتبَاهى بَين النَاس بسُمعته الحَسَنة، وفي كُلِ مَسَاءٍ كُنتُ لا أنَام حَتى أُتمِمَ حفظ دُروسِي، ولَكن أينَ كُنتُ أدرُس أو أقرأ !..

الجَواب مُوجِع، ولكَن شُكراً للحُكومة المُوقَرة التي جَعلت لنا في الشَارِعِ الرئِيسِي ثَمَانِيةِ أعمِدة كَهرُبَائِية فيها مصابيح تُنِيرَ الطَرِيق، كُنتُ أحملُ كُتُبي في الكيس إذ لم

يَكُن لَديّ حَقِيبة آنذَاك، فالحَقِيبة في ذَاكَ الزَمنِ القَاسِي كانَت تعد صنفاً منَ الرَفاهِية ..

والرَفاهِية كَلمَة لا نَعرفُهَا، ولو رَأينَاهَا بأعيُننا فَوالذِي جَمعنِي وإياكُم في كِتَاب إنا مَا عَرفنَاهَا، ولا عَرفنَا رِيحَهَا، لقد كُنتُ أجلسُ بِالسَاعَاتِ الطوال تَحتَ نُورِ أعمِدَةِ الطَرِيق أُراجِعُ دُروسِي وأقَرأُ مَا سُطِر بَينَ أغلفَةِ الكُتب، ومن نِعَمِ اللهِ عليّ أنهُ رَزَقنِي بِذَاكِرة قَوِية جداً جَعلتني من الأوائِلِ في دِراسَتي، حَتى أصبَحَ اسمِي مَضرباً للمَثَلِ في كُلِ بَيتٍ من بَيوتِ القَرية، وكَانَ الآباء آنَذَاك يَقولون لأبنَائِهم الفاشِلين:

مَاذا يَنقُصُكَ لتكون مِثل صَالح الحَرِيري!، كُل النهَارِ يعمَل مع وَالدِهِ في الأرْض، وبَقِية اليوم يَدرس فيه عَلى نُورِ أعمدةِ الطَريق، ومع كُلِ هَذا التَعب والجُهد فإنه يَعيش في ضنك مِن العيش وفَقرٍ مَا بَعدهُ فَقر ..

كان هَذا الكَلام يُؤلمُني ويشرَح صَدرِي بالسُرور في آنٍ معاً ..

أنَ تَعيشَ في مُجتَمعٍ يُؤلمكَ ثم يُضمدُ جِراحكَ بالمَدحِ فَهذَا- لعمري – أمرٌ عُجَاب ..

سِتَ عَشرَة سَنة ..

و أَنا أرى أُمي تَكبرُ و تَكبرُ ، ويَزداد بؤسهُا يَوماً بَعدَ يَوم، كُنَا بِالنسبة لهَا سَعادةً مُؤقَتة وتَعَاسَةً مُؤجَلة، واللحَظَات التي كَانت تَسترُ تَعَاسَتهَا بِهَا هَي الأوقاتُ التي تجتَمعُ فيها الجَاراتُ الثَرثَاراتُ كُل عَصرٍ أمَامَ سَاحَةِ بَيتنَا ..

كُلُ النسَاء تَكذبُ في وحلِ المَجالِس، بل إنهُنّ لا يَكتَفينَ بِالكذَبِ وَحسب، بَل يجبرن خَواطِر القُلوبِ بالآمال الواهية، تَخَيل أنك تَرى أنثَى كَاذِبة تُربتُ عَلى قَلبِ كَاذِبة أُخَرى .. !

السُخَرِية ..

نَحنُ أُمة المِليارِ مُهرّج ..

نَبحثُ عن من يُضحِكُنَا، حتى وَلو كان يَضَحك عَلينَا، لأنَنَا جُزءٌ لا يَتَجزأ من مُجَتمعٍ سَاخِر، ستُزّجُ رُغماً عنك كلقمَة سائغة تلوكها ألسنةُ الناس، فيتناقلون أخبارك مهَما جَمَّلت من ظَاهِركَ وباطِنُكَ، وسَتَقعُ حتماً فريسة لفَخِ غيبتِهم وتَفاهَاتِهم، فَكَيفَ بِك لَو كَنتَ صاحبَ زَلاتٍ كَبَيرة ثم عَزفتَ عَنهَا ! .. إنك لن تنجو يوماً من القَيلِ والقال، حتى ولو اغتَسَلتَ بِمَاءِ زَمزَم وجَعلت بَيتَ الله الحَرامِ لِنفِسكَ مَسكَناً، ورحمَ اللهُ من قَال :

واللهِ لو صَحبَ الإنسَانُ جِبرِيلَ ..

لم يَسلم المَرءُ مِن قَالٍ ومِن قِيلا ..

قد قِيلَ في الله أقوال مُصَنّفة .

تتلى إذا رُتِلَ القُرآنُ تَرتِيلا ..

قَد قِيل أن لهُ ولداً وصَاحِبةً

زوراً عَليهِ وبُهتَاناً و تضلِيلاً ..

هَذا قَولُهم في اللهِ خَالقَهم ..

فَلا عجب إذاً لو قِيلَ فِينَا بَعضُ مَا قِيل .. !

والمَجتَمع العَربي بشكلٍ عام والرِيفِي بشكلٍ خاص ما من عملٍ ولا شغلٍ لديهم سِوى الثرثرة وتَشغيلَ آلةِ اللسِان، أذكُرُ أنه عِندمَا دُعِيَ وَالدِي إلى عرس أحدِ شَبابِ القَرِية، وقد كَانَ وَالدِي يسَوقنَا مَعهُ لتِلَك التَجمُعَاتِ التي كُنتُ أكرهُهَا، بل وأكَرهُ كل تلك التجمّعاتِ التي دُعَيت إلِيهَا، فبَينمَا كُنتُ أُسَاعِدُ الشُبانَ في بَعضِ أُمورِ العُرسِ الفنية، إذ أفلت من يَدِي أحدُ الكَراسِي، وكُسر مع الأسَفِ الشَدِيد ومِن غَيرِ قَصد، فرَاحَ أحدُ إخوةِ العَرِيسِ يُؤنِبُنِي قَائِلاً :

ألستَ صَالح ابنَ أبي صَالحِ الحَرِيرِي؟! ، مَاذا سَتَكون غَير شَخص فَاشِل كَوالدِك، إذا كُنت لا تَقوى عَلى حَملِ كرسي، فأيُّ مسؤوليةٍ تُراك ستحملها في المستقبل!؟ ..

يا صَدَيقي، مَع أنَنَي أعيشُ في قَرِية ثَمانين بِالمِئة من سُكانها هم مِن الفَلاحِينَ الفُقراء الذين لَيسَ لهُم بَعدَ الله إلا خَيرات أراضِيهم، ومَع ذلك كان كَلام هَذا الرَجُل قد

جَرحني إلى حَدٍ لا يُمكن تَصوّرهُ، إنهُم مصَابون بمَرضِ الأنَا والتَكبُرِ على الخَلقِ وينظرُون إلى سواهم مِن البَشَرِ مِن فَوق مِنصَةِ الخيلاءِ والتَعجرفِ، كان ذلك المَوقِف هو أوّل مَوقِفٍ أراهُ في حَياتِي بِمثل هذِهِ القَسْوة، وهَذهِ النَبرة من الغُرورِ والتَبجُحِ، تَركتُ العرسَ ومَا فِيهِ من فَرحٍ وبَذخٍ في التَفاخُرِ الكَاذِبِ وهَربتُ إلى المَنزِل غير عابئٍ بشيء ..

شَعرتُ بِأنَنَي إن التَفتُ إلى الخَلفِ فسَأفقِدُ مَا تَبقى من كَرامَتِي، ومَع علمي المسبق بأنَنَا أُمةٌ مَسلوبةٌ كَرامتهَا ، إلا أنَنَي احتَفِظت بِمَا تَبقَى من كَرامِتِي الشَخصَية وحفظت ماء وَجهِي بعدَ اتخاذي قرارَ النَأي بِالنَفس والفرار ..

هَل نَحنُ فُقراء حَقاً ..

سُؤالٌ وَجهتُه لِوالدِي في يَومِ حَصادٍ أتعَبَ قِوَانَا ..

يَابّة .. لمَاذا نَحنُ فُقراء؟! لماذا يسَخر منَا بَعضُ البَشَر !؟ ..

بَعدَ بُرهَةٍ من طرح سؤالي كُنتُ خَائِفاً من أن يَأتينِي جَوابُهُ مُحمّلاً بِالغَضَبِ، التَفتَ إليَّ بِكُلِ هُدوءٍ، وشَدَّ نظراتَهُ ووجّهها إلى عَينَي، و نَطَقَ حِكماً و جُمَلاً، كانت تلك المرّة الأولى التي أستَمعَ فيها لأبَي وهُو يتحدّث بِنبرة غير الصرَاخ والتأنيب والإهانة:

يابَّة نَحنُ نَعيش في مُجتمعٍ كُلُّ من فِيهِ يَعمل مُتَحرٍ مُتَجسس، فإن لم يَتَجسس لِصالح نِظَامٍ مُعَين، تَجسس لنَفسِهِ بغرض إشَباعِ غَرِيزَةِ الحَسَد لديهِ، وإنَ أرَدتَ أن تَردَ على تَجسُسِهم، فَما عَليكَ إلا أن تُثبِتَ نفسك ونجاحك بجدارة بِفعِلكَ لا بِقولك، وهَكَذا تَستَطَيع أن تَكسِرَ شوكة غُرورهم، و تَجعَلَهم يَموتُونَ غَيظاً بِمَا صَنَعتَ من عَملٍ يَخدُم البَشَرِية ..

لم أكُن أصدّق أنَ أبي هُو هذا الرجلُ الذي أوصَلهُ العَمل في الأرضِ والجلد على الفَقَر وعِزَةُ النَفسِ في آنٍ وَاحدٍ إلى هَذا القَدرِ من الرُشدِ والحِنكة، كانت هَذهِ أوّلُ مَرة

يَنصَحنِي بِهَا، هَذهِ أوّلُ مَرة أشعُر فيها بِأبوتِهِ، في ذَاتِ اليَومِ و بعد عَودتِنَا إلى المَنزلِ وَجهَ إليَّ نَداءً :

ـ يابّة يا صَالح .. امشِي مَعي ..

تَتَبعتهُ ومَشَيتُ خَلفهُ ، كَانت العَادة أن يَمشِي الأبُ في المُقَدمة ثم يَتبعَهُ الأبنَاءُ خَلفَهُ بِخطوة أو عدة خطوات احتراماً لسِنهِ ومَهابته وقدرهِ ..

ـ كم بَقَي لَكَ حَتى تَنتَهي من دِراسَةِ التَوجِيهِي !؟ ..

هَذهِ المَرة الأولى التي يَسألني فيها أبي عن دِراستِي ..

ـ قد تبقّى أرَبعةُ أشهُرٍ يابَّة ..

هَزَّ بِرأسِهِ وتَوقفَ عن المَشي فتَوقفتُ لِوقُوفِهِ ..

التَفتَ إليَّ و قَال:

ـ اسمَع يَابِة تبقى لديكَ أربَعةُ أشهُر لِتُثبتَ للنَاس الذِين يَتقَصدون أذيّتَنا بِأنَكَ تَستَطِيعُ إخراسهم بِنجَاحِكَ، أرِيدُ منَكَ أن تَكونَ الأول لَيس فَقط على مستوى القَرية، بَل على مُستَوى المُحَافَظة، اشددْ قواكَ يَابَّة ، ولا تَذهب إلى

المَزَرعة بعد اليوم، أكرّر لديكَ مهلة لمدة أرَبعة أشهُر فقط ..

في الحَقِيقة لقد صَدمني باهتمَامِهِ بي في تِلكَ اللحَظة، إن لَحظة مِن الأُبوة تُعَادِلُ ألف قوة مِن كل القِوى المُحيطة بِكَ، فكيف إن كنتَ لا تملكُ أي قوة أصلاً ! ..

ـ و لَكن يابَّة .. وَحدَكَ لا تَستَطِيع أن تَقومَ بِخدمَةِ الأرضِ، و أنَا لا أرضَى لنفسي أن أرَاكَ متعباً، بينما أنَا مرتاحٌ في المَنَزِل ..

ـ يا بني هَذهِ الدُنِيا فُرصَة، وعليك أن تنتهزَ فرصتك في هَذه الأشهر الأربَعَة، إذا نَجحتَ فإنك ستُعوضنِي عن كل تَعبِ حَياتِي ..

لقَد رَمَى كَلمة بَنيتُ عَلى أساسها حُلمهُ الذِي كان يَحلُم بِهِ طويلاً، فلربما أعادت له عِزاً كَانَ يَتمنَاهُ :

ـ يا بُني أريدُكَ طَبِيباً ..

لم يَكُن لَديَّ حُلم، كَانت حُدودُ أحَلامِي هِي مَتى سَوفَ نَستَيقظ غَداً، فنَسيرُ إلى الأرضِ كَي نَسقِيَهَا، لأنَ أبي

بِصَرامَتِه حصرَ أحلامنَا بِحَصادِ تَعبنَا وبَيعه في الأسواقِ، كَانَت أحلامُنَا عِبارةً عن إيقاعٍ مُنضَبطٍ دَاخِلَ إطَارٍ رُوتِينِي مُمِلٍ ..

في لَحظَةِ ضَعفٍ قَذَفَ اللهُ في قلبِ أبي حِكمة وحِنكة، جَردتني من ضَعفِي و غَيّرت مَسَارَ حَياتِي ..

أفرغَ لِي غُرفةً خاصة وأمَرَ زَوجَاتَه وأولادهُ بعدم إزعاجي، وأن يوفروا لي أسَبابَ الرَاحَة والهُدوء، فَانصرفت حينها عن إضَاعةِ الوَقتِ والتقليل منَ النَومِ ، وعيناي موجهتان نُصبَ هَدفِي أي مَقولةَ أبي :

- يا بُنِي أُرِيدُكَ أن تَكونَ طَبِيباً ..

أربعَةُ أشهُرٍ وأنَا مُكبٌ بِكَافَةِ طَاقَتِي على كُتبِ التَوجِيهِي لأنَ هَذهِ اللحَظة هَي اللحظة التَارِيخية التي سَتُغَير مَسَارَ حَياتِي و حياة أهَلي، وستحققُ حُلم أبي ..

مَا دَخَل أبي إلِيَّ يَوماً أو لَيلَةً إلا ووَجدنِي مُكباً على الكُتب، يَنظُرُ إليَّ بحَنَانٍ ويَتبّسم، كانت ابتِسَامَتهُ الرِيفِية تمدُنِي بِالطَاقة وتُشعرِني بِالسَعادة.

رَحى القَدر ..

كَرحَى حوران ..

قَاسِية في السحقِ .

وما سحقتْ حبةَ القمحِ إلا وأخَرجت من تَحتِ عَذابِهَا دَقِيقَاً أبَيضَ نَاصِعاً هنيئاً للآكِلين، إنها رَحَى حوران تلك التي تُطعمُ من تَحت قسوتِها وشدّتها خَيراً كثيراً مُبارَكاً، وقُوتاً طيّباً في سِنِينِ كسنين يَوسُف العجاف ..

فَكم من يُوسُفِيٍّ ذَاقَ وَيلاتَ الحرمان وسِياطَ الجَفافِ على أرضٍ كَان يُقَالُ لهَا أذرِعَات، واليَوم صارت تلقب بأمِ اليَتَامَى ..

لَيسَ من الضروري أن تَفقِدَ أبوَيكَ لِتَكونَ يَتِيماً، فَقط احمل حَقائِبكَ وأدرْ ظَهرَكَ لأرضِكَ، وانظُرْ كيفْ يكون اليُتمُ على أُصولِهِ ..

ولِكُلِ حُورانِي رَحَاهُ في تَفكِيرهِ وتَدبِيرهِ، وكَانَت رَحَايَ الخاصة أن أنتَهي مِن التَوجِيهِي بسلام، وأن أنجحَ بِعلاماتٍ عاليةٍ تُؤهلنِي لدُخولِ كُلَيةِ الطَب ..

لم يَكُن الطبُ هَدفي، ولم أضَعْ خَطواتي على سِكَة العلمِ يَوماً، لولا أن أبي أنقَذَنِي ،مع أنهُ رَجُلٌ أُميٌّ لا يَكتُب ولا يَقرأ، وَبعدَ أن نُفثَ في أُذُنِي وبث في قلبي حبَ التزود بالعلوم، وأوَصَل صَدَى الطَبِ إلى قَلبِي، انقلبَ تَفكِيري رَأساً على عَقب ..

قَبَلَ الإمتِحَانَاتِ بِيومٍ ..

دَخَل أبي إليَ بَعد إتمامي لحِفظِ جمِيعِ الكُتبِ بِكَافَةِ قَواعِدهَا وتَفَاصِيلهَا، تَقدَم بخطواته نَحوي، كُنتُ حينها أدرُسُ وأُذَاكِرُ في إحدى زَوايا الغُرفَة والكُتُبُ ملقاة على الأرضِ هُنَا وهُنَاك، لم يَكُن لَدينَا كُرسِي ولا طَاوِلة للدِراسَة، ولَكن كَانَ لدي كرامةٌ ،وحلمٌ أنهَكتُ عَقَلي وفِكري من أجل تحقيقه ..

لأولُ مَرة أرَى أبي يَحملُ كُوبَ الشَاي بَيمينهِ متقدماً نَحوي سَاعِياً لِخدمتِي، أشَفقتُ عَليهِ فَلقد كَانَ التعبُ قَد نال منه.

أسرَعتُ إليهِ لأحمِلَ عنه مَا أتَانِي بِهِ، بِسُؤالِ فيه الكثير من الشَفقة قُلتُ لهُ:

يابَّة .. لمَاذا تَحملُ لِي كُوبَ الشَاي؟! أنَا أحملهُ عَنكَ، لَو ناديتَ لأحدهم لأتَاك وحمله عنَك ..

ابتَسمَ الرَجُلُ، كَبسمة السُهولِ الرَبِيعِية بَعد آخرِ لَيلَة من لَيالِي الشِتَاء، ثم جَلسَ بِجَانِبي، سَحبَ من الهواء نَفسَاً عَمِيقَاً كَأنهُ يَتنَفسُ الصعداء:

يا بُنَي عندِي لكَ عِدةَ نَصَائِح، لكَونك اعتباراً من غدٍ سَتبدأ أولَ إمتِحَانٍ لَكَ كي تَستَطَيع السَير قدماً في مستقبلك ..

أولاً: لا أُرِيدُكَ أن تُحَقِقَ حُلمِي، لأنَ العِلمَ لَيسَ حُلماً ليحققه الآخَرون، بَل هو هَدف للطَامِحِين ..

وثَانِياً: إذا وَصلت إلى كُلَيةِ الطَبِ يَوماً منَ الأيامِ، لا تَغتَر بذاتِك وتَقول أنَا الذِي وَصَلت، فَأنتَ من غَيرِ حَولِ اللهِ وقُوتهِ لا تَساوى شَيئاً ..

وثَالِثاً: الطَب لَيسَ مِهنَة، وإنمَا مُهمة إنسَانِية لِخدَمةِ البَشَر، فَتباً للمُجتَمع الذِي جَعَل من المِهنِ الإنسَانِية مَصَيدة للمناصب والوَجَاهَات.

فَالطب والهَندسَة في هذه الأيام لم تَعُد مِهناً علمِية، ورقياً أخلاقِياً، بل أصَبحت في مُجتَمعِنا موضعاً للتَكَبُرِ والتَبجُحِ وقَلَةِ الحَياء وسَرقةِ أحَلامِ المَسَاكَين، وأنَا لا أُرِيدُكَ أن تَكونَ من هَذا الصِنف من اللصُوص ..

أُرِيدُكَ حُراً شَرِيفاً خَادِماً للفُقَراءِ والضُعَفاءِ، مَحِبّاً للطَبقة التي لا يُؤبهُ لهَا كَأمثَالِنَا، فمَا تَكَبرَ أحدٌ على الخَلقِ إلا وأذَلهُ اللهُ ومرّغ أنفَهُ في الوَحل ..

المُستَقبلُ بين يَدَيكَ، وما عليكَ إلا أن تُجَدد نِيتَكَ، بأن تَكونَ خَالِصَة لِخدمةِ الإنسَانِية فَقط، إياك تَجعل لِمهَنتِكَ قيوداً طَائِفِية أو عِرقِية أو جُغرافِية ..

ولا يُفسِدُ قَلبَ المَرءِ إلا انحِيازَه وتحيزه في عمله لطَائِفةٍ أو عرق معيّن ..

كُل شَخصٍ طَلبَ منِكَ المُسَاعَدة عليكَ تَلبِيتهُ وخَفَضُ جنَاحِ الذل لَهُ، لأنَ الناس كُلهَا تَفنَى، والسَعيدُ من طَواهُ التُراب من بعد أن تَركَ خَلفَهُ بَصَمة خَيرٍ في حياة البَشَرِية ..

لم أُجَالسْكَ يا بُنَي لأنصَحَكَ، و لَكِنّ العِلمَ أمَانة في عُنُقِ من أرَادَ الخوضَ في لجج بحرِه، واليَوم أنَا حي لأنصَحك وأزَرع الوَعي في دِمَاغِكَ، وغَداً أكون تَحتَ الأرض، فإن لم أنصَحْكَ وأضَعكَ على المسَارِ الصَحَيح فكَيف سَأقِفُ غَداً أمَامَ الله، وأواجهه حينما يسألني عنكَ وعَن إخوتكَ ..

لا تَنسَ بِأنَنَي أدعو لكَ، لا تَنسَ بِأنَك ابنَ الارضِ، لا تَنَس بِأنَكَ ابنَ امرأة أُمِية لا تَعرِف القراءةَ ولا الكتابةَ، وكُلمَا دعاك الغُرورُ إلى التنَكِر لأصلك، تَذّكر بِأنَكَ ابن عَائلة أنهَكَها الجُوع و الفَقر ..

كَرامَةَ الإنسَان لَيسَت بِمَا يملكهُ من جَاهٍ أو مَال، وإنمَا تَظَهرُ بمَا يُقَدمهُ من إنجَازَاتٍ أخَلاقِية وعِلمِية من غَير أن يَنتَظِر جَمِيلاً من أي مَخلوق ..

دَعواتِي لكَ يا بُنِي، وأتمنَى أن تَكونَ خَادِماً لِضَميرك وإنسَانِيتَكَ ..

يا الله ..

مَاذا يَجَري، أيُعَقل أن يَكونَ هَذا الرجُل أبي، أيُعقل أن أكُونَ مخلوقاً من صُلبِ رَجلٍ قد فَهمَ الحَياة أكَثر من الذِين قَرأوا الكُتبَ وأعملوا العقول !؟ ..

هُوَ الذِي ولدَ في كَنفِ أُمهِ يَتِيماً، ولم يَرثْ منِهَا سِوى قِطعة أرضٍ صَغَيرة كانت مَصدَر رِزقٍ لهُ وأعانته على تحمّل جزء من قَساوة الأيامِ المُقبِلة، فَعمِلَ في أرَاضِي الباشوات لِيشَتَري من المَال الذي حصده بعَرقِ جَبِينِهِ بَعضَ الأراضِي المحيطة بأرضِهِ فيَضمُهَا إلى رزِقهِ ..

وبَعدَ أن قَطعَ عُمراً من الشَيبِ، أهَداهُ الزَمَانُ عِزَةَ نَفسٍ وطَهَارةَ قَلبٍ مَا بَعدهَا طَهَارة، فَلم نَكُن نَستَحي بَأبي لأنهُ فَقَيرٌ، ولَكن كُنَا نَفتَخرُ بهِ لأنه رَجُلٌ شَريفٌ وحَكِيمٌ ونزيه، إنهُ أبي إذاً..

الرَجُل الذِي تَرى بَينَ عَينَيهِ بُركَاناً، ومَا إن تقترب منه حَتى تجدَ رَجُلاً فَاضَ من قَلبِهِ الطُهر والحِكمة ..

لأنهُ أينع مَع سَنَابِلِ الارضِ ..

وانبجسَ من شُروقِ الأريافِ ..

لأنهُ نَبعَ مع سُيولِ الخَيرِ المُنهَمرة من السَماءِ ..

لأنهُ يَعقوبي الحُبِ وركناً صلباً في مَملكة الحِنكة ..

أفتَخرُ بِهِ .. رُغم كُلِ فَقرٍ، وكُلِ وَجعٍ، وكُلِ ألمٍ، وكُلِ حُزن، فَقط لأنهُ: أبي ..

لتحقيق الأهداف متعةٌ لا تضاهيها مُتعة

إنهَا متعةُ الوَصولِ إلى حَيثُ المنتهى ..

وكَيفَ لو كَانَ المُنتَهَى تَاج عَزٍ يَتَفاخَرُ المَرءُ بِهِ أينمَا حَلَ وارتَحَلَ، لا عَزَ لِقومٍ هَجروا مَجَالِسَ العِلَمِ، واستَبدلوا بعُقولِهم قُمَامَةَ الطَائِفِية والعِرقِية والقَومِية، إنَ من أوقفَ آلةَ التَعقُلِ ومَاهَيةِ التفكيرِ، فَإنمَا أوقفَ أمراً فَرضَهُ اللهُ عَلَيك ألا وهُوَ التَدَبُر ..

إنَ التَدبُرَ والتَفَكُر إن لم يَكُن يَخدُم الإنسَانِية بِالإنتَاجِ والرُقِي الحَضاري الذِي يَخدُم الحُبَ والسَلام ومَصَالح البَشَرِ فَلا خَيرَ فِيهِ ..

نَحنُ بِحَاجَة إلى أنسنةِ التَفَاصِيل، وخُصوصاً التَفَاصِيلِ العِلمِية بِكَافَةِ اختِصَاصَاتِهَا، لَقد أخطَأ المُصنِفونَ في تصنيفِ بَعضِ القِوى العَالمِية -التي تَجردَت من إنسانِيتها- دولاً عُظمَى !! ..

هَل تَعلم ما الذِي عَظمها !؟ ..

إنهُ الخَوف من إظهارِ أنيابهَا، لأنَ لَها أنيابَ شَرٍ، كَأسلِحتِهَا الفَتاكَة، وقَنابِلهَا النَوَوية التي أودَت بِحَياةِ مَلايينِ البَشَرِ، وفِخَاخِهَا وأدواتِ صَيدهَا ..

عَالمٌ مُقنَعٌ فِيهِ من الكَذبِ مَا فِيهِ ..

والكُلُ يُتقِنُ لُعَبةَ الخِفة، والذِي يُحكمُ ضمَيرهُ في هذه الأمور يعد جَباناً، هَذهِ اللعبة المُلوثَة كان قَد أطلق عَليهَا أهل النِفاقِ:

سِياسَة ..

بِكَسَرِ السِين، وكُل مَن يَتخَطى هَؤلاءِ القَوم فَمصَيرهُ كمَا آلت إليهِ أُختَنَا المِسكَينة: السَين، (أي الكسر)

أسمَاءٌ وأفعَالٌ لا تَسمعهَا إلا بِلُغةِ السَين .. تسعة وتَسعونَ بِالمِئة منِهَا خَالٍ من إكسيرِ السَلامِ، كَالذَبحِ بِالسِكِين، والضَربِ بِالسَيف، وسَلِ السِهَامِ أمَامِ دُموعِ الضِعَافِ، حَتى أنهم جَعلوا من الغَازِ سِلاحاً فَعالاً وفتاكاً لقتلِ البَشَرِ اختِنَاقاً كَغَازِ السَارِين ..

فَالمَعركة بَينَ الخَيرِ والشَرِ بِدَايتُهَا فَتِيل حَسَدٍ، ما إن يحتَك بِنِيرانِ الغيرة حَتى تَشتَعلَ الحُروبُ في كُلِ حَدبٍ وصَوب، كُلُ الأطرافِ تُبررُ هَدمهَا للبيوت وقَتلهَا للأبرياء وتَدمِيرهَا للبُنَى التَحتِية على حَسَبِ مَصَالِحِها ..

الجَميعُ مُنهَمك في فُنونِ الذَبحِ و القَتَلِ، والجَميعُ مُتعَب من التَنظِيرِ والتَحفَيزِ للوصُولِ إلى السَلامِ، بَينمَا السَلامُ نَائِم على مَسَاحَاتِ الأرضِ الخَالِية من شُرورِ البَشَرِ، هُنَاكَ ألسِنة تَدعوا إلى السَلامِ لَيلاً نَهَاراً، سِراً وجِهَاراً مُدَجَجِينَ بالسُمومِ ومُقنَعِينَ بِالأكَاذِيبِ ..

هُنَا وعلى هَذهِ الكُرة الأرضَية، هُنَاكَ أهَدافٌ على قَيدِ الأحَلامِ، يَعملُ أهلُهَا لَيل نَهَار لِيصلوا إلى تحقيق أمَانِيهِم، إنهَا أحلامٌ بَرِيئَة، لهَا نوتاتٌ نَاعِمة، وقَوافٍ مُزَركَشَة، إنهَا لَذَةٌ للسَامِعِين، وهَنَاءٌ للنِاظِرين ..

ولأهَلِ حوران أهَدافَهُم المَعقودة بِسنَابِلَ القَمحِ، وعَصَيرِ الزَيتونِ وأحجَارِ السُهولِ، كُنتُ ولا زِلتُ أعَيشُ على هَذهِ الأرض مُشرِعاً حُلُمِي للهَواءِ الطَلقِ ..

ومَا إن زَالت لَيالي التَعبِ والحفظِ والسَهَرِ والكدِّ والجَدِّ، حَتى أشَرقَ عَليَّ أولُ يَومٍ من أيَامِ الإمتِحَانِ الذِي يُكرمُ المرءُ في نِهَايتهِ أو يُهَان ..

وكُلَ صَباحٍ وقَبل ذَهابِي إلى الإمتِحَان يَقفُ وَالدِي على عَتبةِ باب البَيتِ مستَودِعاً حُلمِي وحُلمهُ عندَ ربِّ لا تضيع عنده الودائع ،دَاعياً :

الله لا يُضِيع لكَ تَعب يا بُنَي ..

و تَبقَى أحلامُ الضِعَافِ نَاصِعَة مهما خَانتهَا الشُرور ..

ثَلاثة أسَابِيع من الذَهابِ والإيابِ إلى القَرية المُجَاوِرة لنَا، لِتَقدِيمِ إمتحَانَاتِ التَوجِيهِي، والذِي نَفسِي بِيده إنهَا شَقاءٌ مَا بَعدهُ شَقاء، وإن أصعبَ شَقاءٍ ذُقتهُ فِي حَياتِي كَانَ هَذهِ المَرحَلة الصَعبة، لأنَ المَعركة آنذَاك لَم تكن مَعركَةَ جُهدٍ بَدنِي، بَل كَانت مِحرقَةً للأعصَابِ ..

لم أذُق طَعمَ النَومِ بَعد إمتِحَانَاتِ التَوجِيهي، لأنَ التَفكِير في مآلي وما سَيصدُر من قَراراتٍ -سَلبِية كَانت أو إيجَابِية- لن يؤثَر عَليَّ فحَسب، بل رُبمَا سَيرفع من مستوى السَعادة في

قَلبِ أبي أولاً ومن ثُمَّ قَلبِي ثَانِياً، وربما العكسُ لا قدرَ الله ...

شَهر ونِصف من التَوتُرِ والقَلق والإضطِراباتِ الدَاخِلية، كُنتُ أجلسُ طويلاً لوحدي بَعد العَمَلِ في الأرضِ، أبني من رِمَالِ أحلامِي فَرحةً على وَجهِ أهلي.

غَداً السَاعة الوَاحِدة بَعدَ الظُهرِ سَتصدرُ النتَائِج ..

كُنتُ على يَقَين تَام من إجَاباتِي على أوراقِ الإمتِحَانِ، كما كُنتُ وَاثِقاً من مَحفوظَاتِي التي أجهدتُ بِهَا عَقلِي، كُنتُ بَعد كُلِ إمتحَان تَنتَابُنِي سَعادة تَغمرُ القَلب لأَنَ الإجَابات صَحَيحَة مِئة بِالمِئة ..

دَخلَ أبي لَيلتَها إليَّ وقد كُنتُ مُستَلقٍ على فِراشِي إذ كُنا نَنامُ كإخوة بِجَانِبِ بَعضنا البعض كَأحلامِنَا الصَغَيرة ..

ـ يا بُنَي تَعال ..

لَحقتُ بِهِ إلى سَاحةِ البَيت، وجَلسنَا مَعاً في رَحابةِ الصَيفِ، وضِيافَةِ إبرِيقٍ من الشَاي بِالنعنَاعِ، لَفَّ سِيجَارَتهُ، و ابتسَمَ لي ..

ـ اسَمع يا بنيَ يا صَالح، لَقد اشتَريتُ عَشرةَ خِراف، سَتَكون عِندنَا في الدار صباحَ الغدِ .. !

تَعجبتُ لِوالدِي وصُنعه .. فَقلتُ :

ـ يابَّة .. هَل سَنرُبي الخرافَ بِجَانبِ الأرضِ !! ..

ضَحِكَ وَالدِي، ومَا أجملهَا من ضحكة ..

ـ أنَا على يَقِين بِأنَكَ سَوفَ تَحصُل على نَتِيجة تُؤهِلُكَ لِدُخولِ كليةِ الطَبِ، أُرِيد أن أَفرحَ بِكَ وبِجُهدِكَ ..

أيُ لَيلةٍ هَذهِ يا رَباه !! ..

مَاذا يُرِيد أن يَفعل أبي غَداً ! ..

هِيَ حوران بِتُرابِهَا الأحمر، وطَقسِهَا النَقَي، ومَسَاحَاتِ النَهَمِ بَين مَزَارِعهَا، وحدها من تُربتُ على أحَزانِنَا ..

جَمِلية يا أُم الشُرش، بَهية مُطَرزة بِالخَير، نَقَية مُحناةٌ بِالحُبِ، بَرداً وسَلاماً على أهَلكِ وخِلانَكِ، نَاراً وحَرباً على أعدائَكِ، حوران يا أُم اليتَامَى أنجدِي ابنَكِ يا يُمَّة ..

إنهُ فَجرُ حوران ..

رَائِحَةَ الخُبزِ المُبللِ بِالنَدَى ..

صَيحَاتُ الدِيكَة المُغَلفة بِالصَيف ..

جُنونُ الطُرقَاتِ التُرابَية الخَالِية من العَائِدِين ..

وآثَارُ أقَدَامِ المَواشِي التي سَارت على وَحلِ الصَباحِ، وغَفوةِ القَهوةِ المُتَعثِرة بِالغُيومِ، ورَحَابة أرضٍ كَخَيرِ أُنثَى أشَبعت من صَدرِهَا ألف قَبِيلة ..

أيُ أُنثَى أنتِ يَا أُمَ القَبائِلِ !؟ ..

بِدايَةُ التَكوينِ أنتِ، وأيقونَةُ الحُبِ أنتِ، وسَيدَةُ المَراعِي ومَنبتُ الخَيرِ أنتِ، مُعجمُ المَعَارِكِ واندِثارُ الطُغاة أنتِ ..

و من أنتِ ! ..

أنتِ حوران ..

كَمَا جَرت العَادَة، ومَا أجملهَا من عَادة، قَبل انبِثاقِ ضوء الشَمسِ، ومَعَ انصِهَارِ النَدَى، وفي كَينُونَةِ الفَجرِ ومع وَداعِ الظَلامِ، يَدخُلُ إلينَا أبي ليُوقِظَ الجَمِيع ..

ـ يلا يابَّة .. استَيقِظُوا .. لدينا عَملٌ كَثِير هَذا اليَوم ..

بَينمَا كُنتُ أُزِيلُ ضَبَابَ النَومِ عن وَجَهي، فَارِكاً أجفانِي لأُزِيلَ آثارَ النُعَاس، سَمعتُ صَوتَ بوقٍ لِسيَارة قَد حَطَت بِأحمَالِهَا أمَامَ منَزِلنَا ..

صَوتٌ قادِمٌ مَعَ الغَضب، إنهُ أبي إذا غَضِب، كَالبُركَانِ الثَائِرِ، ولا أحد يَستَطِيعَ أن يَهمس في وَجهِهِ حَتى لَو كَان الشخص أُمِي، كَانَ الكُل يَخَافَهُ ويَهَابهُ، لأنهُ أشَبعَ كل من في البَيتِ ضَرباً، ولا أحد يوماً قَد أفَلتَ من جَلدَاتِهِ بِعِقالهِ الذِي يَضَعهُ على رَأسَهِ، ولا حَتى أنَا ..

سَأعَتَرف ..

أعَتَرِف بِأنهُ أشَبعَنَا مَعَ الخُبزِ جَلداً مُبرِحاً، وإن وَقَع أحدٌ بَين يَدَيهِ فَإنَ قِيامَتهُ سَوفَ تَقوم كَائنَاً من كَان، وإن قَالَ لأحَدِنَا:

ـ هَذهِ اللَيلَة سَهَرتِي مَعك ..

أيَّ أنهُ سَوفَ يَجعل من جِلدَهُ دَفاً للأفراح، كَانت حَياتُنَا مُغَمسَة بِألفِ ألفِ رفشة..

ولا أحد يَعرف الرفشةَ إلا أربَابَ القُلوبِ القَاسِية، ومَن شَربَ مَعَ المَاءِ سُماً، إنهَا حوران .. مَدرسَة الحَياة التي تُعَلِمُكَ الرُجُولة قَبلَ الفِطَام، على هَذهِ الأرض يُفَطُمُ أهَلُهَا من الشَقاءِ والعَذابِ بَعد أن يُسَوى بِهِ التُراب، وحَتى لَو بَلغَتَ منَ العُمرِ عِتياً، سَيَبقى وَالدُكَ الفَزَاعة المُرعِبة التي تُؤرِقُ عليك مَاضِيكَ و مُستَقبلُكَ ..

سَأعتَرف ..

بِأنَ مَجَالِسَنَا البَسيطَة، المَفروشَة بِالحَصيرِ، كَانت مَجَالِسَ عِزٍ و كَرامَة، ومَدارِجنَا المَنسُوجَة من صوفِ البَهَائِمِ كَانت مَدَافِئَنَا، وسَجَائِر التِبغِ التي كُنَا نَلفُهَا بِأيدِينَا ونَخافُ أن يَكتَشِفَهَا أهلُنا كَانت أكبر أسرارنا، ووَلائِمنَا التي تُقَامُ على شَرفِ الضُيوفِ كَانت ألذَّ أطعمَتنَا، وأمَا أغَانِينَا ومَعَازَفنا ..

يا الله ..

لَو شَاهَدتهَا وسَمعتها، إنَ كَانَ في القَرية عُرسٌ كَانت تَحجُ القَرَية كلها إليهِ، وتَسعَى بَينَ الخِيام المَنصُوبةِ للضيوفِ،

وتُنَارُ الأضويةُ كَأنَهَا لَيلة من لَيالِي اكتمالِ البَدرِ، وحَتى القُرى المُجَاوِرة كانت تَزحفُ فَرِحَةً لِفَرحنَا، لَيسَ لَنَا من الآلاتِ الموسيقية إلا آلَتَين اثنتين:

الطَبلُ و المزمار، أو مَا يُعرف بِآلةِ المِجوزِ ..

وبِمُطرِبٍ شَعَبي لا تَفهم من غِنَائِهِ إلا إثَارةِ الجَمَاهِيرِ للدُخولِ في دَوامَةِ الدَبكَة ..

كَانت دَبكتُنَا قَرِيبة إلى مَسبحَةِ أُمِي التَي صَنعتهَا من بُذورِ الزَيتون، تَشعُر بِأنَ هَؤلاء النَاس قد اجتَمعوا في هَذا العُرس لَينسوا، ولَكِن إذا سَألتَ نَفسَك:

ـ يَنسوا مَاذا !؟ ..

الفَقر، والتَعب، والشَقاء، وقِلَةَ الحيلة، نَعم كُنَا في ضِيقٍ وضنكٍ لا يَعلم بِهِ إلا الله، ولَكِن أيضاً كَانَ أكبرُ هَمٍ لَنَا لا يَبلغَ مَدَاهُ يَومَ غَد .. هَمُنَا الوَحِيد الإستِيقاظِ منَ النَومِ بَاكِراً قَبلَ أنَ تَشرقَ الشَمسُ، فإن خَرجَت الشَمس و نَحنُ لم نَستَيقِظ وعلمَ رَبُ العَائِلة بذَلِكَ فِإنَ قِيامَةَ البَيت سَتَقوم لا محالة ..

إلى الأرضِ والشَقاءِ، وإرَاقَةِ كُلَّ طَاقَتَكَ .. تَحفُر و تَحرُث وتَحصُد، وإن كَانت هُنَاك سَنة مَحلٍ وقَحط، فِإنَ الجُوعَ سَيأكُل من وجُوهِنَا دَهراً من الجَفافِ، كُنَا نَفرحُ بِقُدومِ الضَيفِ حَتى نصنعَ الولائم ونخرجُ من بوتقة القلةِ والحرمان ..

ومَعَ أنَ المَسغَبة إن أتَت لا تُبقِي ولا تَذر، فإنَنَا لم نَكُن لنَمدُ يَدَنَا للغَيرِ لأنَ كَرامَتنا أكبر بِكَثَير مِن أن نطلب مِن الخَلق ..

كَانت الرِجَالُ في مَواسِمِ الأفراحِ تَقومُ قِيامَتهُم، وتَبقَى الأقدَامُ تَخبطُ على الأرضِ حَتى الصَباح، إنهَا الدَبكَة يا صَاح ..

مَكَانٌ لإفراغِ الغَضَبِ والشَقاء ..

نِسَاؤنَا .. خَائِفات، كَاذِبات في بَعضِ الأحَيان، وفي بَعضِ الأحَيانِ الأخرى تراهنّ أقوى منَ الرِجَالِ، إناث مَسحوقاتٌ مع جَفافِ الطَبِيعَة، تراهَا في المَواقِفِ الصَعبة بصلابة الصَخر أو أشَدّ قَسوة ..

لم تَدخل الكُلياتِ العَسكَرية، و لم تتبع دورة لتعلّمِ الفنون القتاليةِ يوماً، ولم تَتَخرج من السُجونِ العَالمِية ..

إنهَا أُنثَى الرَحى، وإلى نِسَاءِ العَالمِ أكتب في هَذهِ اللحَظة : أيتهُا الأُنثى إن البَحثَ عنِ البُطولة، وإنجَابَ الرِجَالِ العُظَمَاء، أولُ شَرطٍ من شُروطِهمَا أن تَحملَ الأُنثَى بضَاعتها على أرضٍ تُشبهُ حوران، لأنَ حوران لا زَالت إلى عَصرِنَا هَذا تُنجبُ العُظمَاء، ولأنَ ورَاء كُل أُنثَى عَظِيمة أثنَى حورانِية أو أُنثَى تَشَبهت بنسِاءِ حوران ..

هَكذا لا يُوجد أيُ رَدٍ إن نَادَى صَاحِب الدَارِ بِأهلهِ أو بأبنَائِهِ غَير كَلمة و جوابٍ وَاحدٍ :

ـ يلا يابَّة جَابيك ..

التَأخُر عن الإجَابة يَعني أنَكَ عَرضتَ خَدكَ لِصَفعة عَابِرة مرعبة، والتَأخُر عنهُ يعني أنَ لَيلَتكَ ستكون عامرةً بِالضَربِ والجَلد، ولَكن لا أُخفِيكَ سِراً، لَقد تَخرجنَا من تَحتِ أيدِيهِ رِجَالاً ..

دَائِماً وأبداً ألسِنتُنَا مَطوِية بَينَ فَكينَا، و أيدِينَا نَقطعهَا ونَرمِيهَا للكَلابِ الشَرِهَة دون أن نَمسَ رِزقِ غَيرنَا، وأعيُننَا تَجوبُ الأرضَ ولا نَرفعهَا إلى أعراضِ النَاسِ، لأنَه كَمَا لدينا أعراضٌ نَخافُ عَليهَا، فكَذَلكِ لدى النَاس أعراض تَخافُ عَليهَا ..

جَاييك يابَّة ..

كَلمة أشتَاقُهَا بِرجُولتِهَا ..

و حَنَانِهَا، وأمَانِهَا .

إن مِن أهمِ القَواعِد التي يُجَازِي اللهُ - بناءً عليها - الخَلق في الدُنِيا قَبل الآخِرة، هي قاعدة وَاحدةٌ فَقط إن فَهمتَ مَاهيتَها وسِرتَ حسبَ منهجها فَواللهِ إنَكَ لَمِنَ الفَائِزين:

كَما تَدِين تُدَان ..

أحدَ عَشَر حَرفَاً فِيهَا مَا يشلُّ حَركَةَ سَيركَ فِي حَياتِكَ الدُنيا، حَادِثَةٌ شَاهَدتُهَا في ذَلكَ الزَمنِ الذِي جَمعَنا في نَومِنَا تَحتَ حُلمٍ وَاحِد .

أبو جَابِر الحَرَيرِي، إنهُ أحدُ وجَهَاءِ قَريتنَا ، كَان عِندهُ منَ المَواشِي والأراضَي مَا يَسُدُ جوعَ كَافَةِ الجِياعِ في إقلِيمِ حوران، تَقولُ الحِكَاية التي تَنَاثَرت أطَرافُها على مَسَامِعِي: إنَ أبَا جَابِرٍ كَانَ رَجُلاً عَاقاً لِوالدِهِ، فَبعَد أن تَعلمَ في الكُتّابِ القِراءة و الكِتَابة، واشتَدَ عُودهُ وثَقُلَ عِلمهُ، تَحدّثَ مَع وَالِده

يَوماً من الأيام وَطلب مِنه أن يَبصمَ على أوراقٍ لا يَعلم وَالدهُ مَاهيتها ..

كَانَ أبوهُ يَثقُ بِهِ ثِقةً عَمَياء، ولَكن هَذهِ الثِقة لم تَكُن في مَكَانِهَا، لأنَ الولد قد خلد سُموماً اللهُ أعلم بحَجمهَا، بَصَمَ الوَالِدُ المِسكِين على الأوراق بِحضورِ أحدِ رِجَالِ العَدلِ والشُهود المَأجورِينَ من قَرِية أُخرى ..

لم يَرتَحل اللَيل حَتى عَادَ إلى بَيتِ أبِيهِ وطَلب من أبويهِ مُغَادَرةَ البَيتِ إلى بَيتٍ صَغَيرٍ بِجَانِبِ بَيتِ المَواشِي ..

جُنَّ جُنون أبيه بِمَا صَنعَ وَلدهُ الذِي منحه كامل الثِقة ..

ولَيلتهَا أيقن الأب بأنهُ قَد بَصَمَ على أوراقٍ للتنَازُلِ عَن كَافةِ أملاكِهِ لابنهِ، فَانتقلتْ أُمُّهُ إلى رَحمةِ اللهِ بَعد ثَلاثِة أيامٍ منَ الذُلِ في أحدِ بُيوتِ المَواشِي، ولَحقِهَا الأبُ بَعدَ شَهرٍ منَ القَهرِ، ولَكن قِصَة هَذا العَاق ذاعت في كُلِ أصقاعِ القَرِية وحَتى في القُرى المُجَاوِرة ..

كَانَ عِندهُ ثَروة ضَخمة، حَتى لَفَّ من حَولهِ المُنَافِقِينَ ورِجَالِ الدِين والسِياسِيين وحُثَالة البَشَرِ الذِينَ يُتقِنونَ (تمسِيحَ الجُوخ)

تَزوجَ العَاق، وأنَجبَ من صُلبهِ اثنين من البَنِين، جَابر وهَاشِم، كَبُرا، و كَانت تُلاحِقُ الأب (أبو جَابر) قَاعِدة : كَمَا تَدِين تُدَان ..

ظَهَرت علائم الشَيبِ على مفرق رَأسِ أبي جَابِر، والرُعبُ قَد شَتَتَ رَاحَةَ بَالهِ، فما إن كَبرَ أولادُهُ حَتى مَرِضَ أحدُ أولادِهِ مَرضاً شَدِيداً ..

أصيب بسَرطَانِ الدَم القَاتِل ..

بَدَأ أبو جَابِر يُلملمُ ثَروتهُ لِعِلاجِ ابنه خَارِج البَلد ولَكنَ كلفةَ العلاج ضَخمة جِداً، بَاعَ مَا بَاعَ من ثَروتهُ، و هَيأ نَفسَهُ للذَهَابِ مَع ابنهُ المَرِيض إلى الأردُن، ولَكن ابنهُ جَابرَ المُعَافَى سَرقَ كلَّ الثروة وهَربَ بِهَا إلى المَجهُول ..

لم يَبقَ لأبي جَابر إلّا بَيته وبَيت المَواشِي الذِي رَمَى أبوَيهِ فيه ..

إنهَا الأقدَارُ التي أجبرته أن يَبيعَ بَيتَهُ ويَعُودَ إلى بَيتِ المَواشِي للعَيشِ فيه، نُقِلَ ابنهُ إلى الأُردُن مع أُمِه، ولَكنه ماتَ فَورَ وصولهِ إلى الأردنُ ولم تَعُدْ زَوجتُهُ إلى حوران بعد أن التَقتْ ولدها السّارق جَابر، وغابا في ليلةٍ ظلماء فلم يجدْ أبو جابر لهما أثراً.

فَقدَ أبو جَابِر عَقلَهُ، وصَارَ يَتحدثُ مع نَفسِه كالمجنونِ في الطُرُقاتِ والشَوارِعِ، حَتى ظَهَرَ على جِلدِهِ مَرضٌ خَطَير ومعدٍ، فَلم يعدْ يأتي إلِيهِ النَاس، ولا يعودهُ أحد، فَكَانَ المُحسِنون يُلقونَ إليهِ بالطَعَام من خَلفَ السُورِ حَتى لا يَلمسُوهُ أو يُجَالِسوهُ ..

أبو جَابر .. كَسَرَ اللهُ جَبرهُ في آخِرِ عُمرهِ، عَاشَ خَمس سَنواتٍ منِ العَذَابِ والفَقرِ والذُلِ والمَرضِ، و وُجِدَ بَعدها على أطرافِ القَرية وقَد فَارقَ الحَياة، ونَهشَ جِلدَه و لَحمَهُ الكِلابُ ..

تَخَيل يا رَعَاكَ الله .. تَخَيل فقط، لم يَستطعْ أن يَقتَرب إلِيهِ أحد، حمَلوا مَا تَبقَى من جَسَدِهِ إلى المَقَبرة و دَفنوهُ بِجَانِب

وَالديهِ، ورحل إلى المكانِ الذي لا يَنفع فِيه مالٌ وَلا بنون إلا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليم ..

كَمَا تَدِين تُدان ..

قَاعِدة كُل مَن فِي القَرِية يَعرفُهَا جيداً، والكلُّ هنا مؤمِنون بأن عُقوبة الظلم عاجلةٌ غير آجلة ..

عَاشَ وَالدِي في هَذهِ القريةِ فُتوتَه فَقيراً، مُحباً للخَيرِ، شُجَاعاً يَكره الظُلمَ، مَاتَ وَالدُه في إحدى المعَارِكِ الوَطِنية، ومن كَرمِ الوَطن أنهُ يُكرمُ أهَالي الشُهدَاءِ بِالخِطَاباتِ الوَطنِية والشِعاراتِ القَومِية ، كَأنَ يَقولونَ لَكَ : ارفع رَأسَكَ .. وَالِدُكَ شَهِيد ..

رُغمَ جَمَالِ هَذا الوَصفِ، إلا أنهَا مَسؤولِيةٌ كَبيرة، وفي نَفسِ الوَقت فِيهَا من القَسوة مَا يَجعلُ من جِلدِكَ وتَعَاسَتِكَ أداة للجَلدِ مَا دُمتَ حياً ..

عَاشَت جَدتي مَع وَالدِي في بَيتٍ من طَينٍ ولبن، ما من سندٍ لهم إلا الله ، فَكَانت أُمهُ تعمَل في أراضِي الإقطَاعِيين

وفي بيوتِ العجائز لخدمَتهم بَعدمَا رَمَى بِهَا الوَطن بين أنَيابِ الفقرِ ..

فَرِحت جدّتي لوالدي وباركت له زوَاجه من أُمِي ثم تُوفِيت عَن عُمرٍ يناهز سِنَ الجُوعِ والحرمان ..

وهَا هُوَ أبي ..

رَجُلٌ شَدَيدٌ، عَرفتُهُ في هَذهِ الأشُهر القَلائِل، كَانَ أباً مُخَيفاً وصَعباً، فَالتعَامل مَعهُ كَالتعَامُل معَ الصُخور، جَعلنِي أشعُر بِالأمَان قَبل خمسَةِ أشهُر، وهَا هُوَ اليَوم يُرِيد أن يَجعلَ من نَجاحِي فَرحاً وفَخراً لَهُ، أسَرعتُ إليهِ، و إذ بِه أمَامَ شَاحِنة تَحملُ عَشرة خِرافٍ سِمَانٍ ثِقال ..

شَاهَدتُ ابتِسَامتَهُ لأولِ مَرة، عِشتُ مَعهُ زَمناً منَ الدَهرِ دون رؤيتي لابتِسَامته، وهَل خَبأَ هَذهِ الابتسَامة لهَذا الزَمنِ من أجلِ أن يُظهِرهُا في هَذهِ اللحَظة !! ..

دَعوتُ الله أن لا يَخيبَ ظَن أبي بِي ..

نظر إليَّ مبتسماً ثمّ قالَ:

ـ يلا يابَّة .. اذهَب إلى المَدرسَة لِتَرى نَتِيجتِكَ، أرُيد عَلامَات تُبَيّضُ الوَجه، الله يَرضَى عَلِيك ..

لا أعلم من أينَ أتَى بِهَذهِ الثَقة العَمَياءِ، أيُعقل أنهُ يَعلم بِالغَيب !؟ ، فَكَانَ كُلٌّ من في البَيت مَشغولاً، النِسَاء تُمشِطُ القَمحَ و الأرُزَ تأهُباً لِوِلِيمة ضَخمة، وأُخرَيات يُنَظِفنَ البَيتَ ويغمرُهنّ يَقينٌ بأنَني سَوف آتي بِخَبرٍ يُسِعدُ الجَمِيع ..

كَانَ كُلُ من في البَيت سَعِيداً لِسعَادَةِ أبي، فَالكُلُ هنَا لاحَظَ أنَ ابتسَامَةً جميلة قَد رُسِمت على وَجهِهِ ..

إنهُ أبي إذاً .. !

رَكَبتُ هَبوبَ النُورِ ..

على مَركَبة كَانت تنتشرُ بكثرة في تِلكَ الأيام في قَريتنَا، إنهُ الجَرار الذين يُسنِدُ المُزَارِعونَ قِواهُم عَليهِ، ثَلاثونَ دَقِيقة بِالضَبط وتَصل مَركَبتِي إلى القَرَية المُجاوِرة، وتَدورُ العَجَلاتُ على عَجلٍ، وكُلُ الأحَلام تَدورُ معها وتطحَن برَحاها قَلبِي، إنهُ حُسنُ الظَنِ بِاللهِ عَزَ وَجل ..

كُنَا رُفاةً من بَنِي البَشَر نَعَيشُ على كسرِ الخُبزِ ونَحمدُ الله دَهراً، لم يَدخُلْ قُلوبنَا أيُّ شائبة، لأنَ أُناساً خَرجوا من أرحَامِ الأرضِ تَأبَى قلوبُهم أن تَتَلوثَ فِطرتهَا ..

و لَكن لا أُخفِيكَ سِراً، كانَ الجَهلُ يستشري في كُلِ مَكَان، جَهلنَا بَالعَالمِ المُتَقدِم، وبِمَا يُحِيط بِنَا من مَخاطِر، كُنَا نَسمع بالحُروب التي تُدور في أطرافِ هَذا العَالم، ولَكن كَان أكبر حَربٍ نُواجِهها أن تجدب الأرض، وأكبَر فَوزٍ وغنيمة لَنَا يَومَ الحَصَاد ..

يا لجَمَال مرآهُم وهُم يُغنُونَ في الحَصادِ، يَجمعونَ قَمحَهم أكواماً .. أكواماً، وهُم يَعصِرونَ الزَيتَ، وهُم يَبيعونَ

تعبَهم للتُجَارِ، أجْمل بعُيونِهُم وبرِيقهَا، وبجِباهِهِم المَرفُوعة ..

الكُلُ يَغُني في هَذهِ المحَافِل، و لَكنه غِنَاءُ الشَاكِرينَ على آلةِ الحَامِدِينَ ..

على طولِ الطَريق كنتُ أسأل نفسِي إلى أينَ يَسيرُ بِنَا هَذا الطَريقُ، لا بُدَ أن لِكُلِ شَيءٍ نِهَاية، وإنمَا الأعمَالُ بِالخَواتِيم، هَل هَذا الذِي يَحدثُ مَعي بِدَاية ! ، أم أنهَا نِهَايةِ النِهَايات !؟ ..

إنهَا الأقدارُ وَحدهَا من تُرتَبُ لنَا مَواعِيد تَليقُ بِخَيباتنَا أو نَجَاحَاتِنَا، وتُخيطُ لنَا أحذِية على مقاسِ سَعادَتِنَا أو تَعَاسَتِنَا ..

لا نَعرف مَا هُوَ دَورنَا التمثيليّ على خشبةِ الأرضِ، فَقط لأنَكَ لا تَعرف مَتى سَيُمسح الغبارَ عن معدنِك، ومَتى سَيظَهر للعَلن إلى أيِّ المَعادِن تَنتَمِي ..

هَل سيكونُ دورُكَ في الحياةِ بطولياً، هامشياً

ليسَت البُطولة هُنَا بِجمعِ الثَروات، وحَصدِ الأموالِ، أو إنجَابِ البَنِين، والتَعَالي على الخَلقِ، لَيسَ مُهماً أنَ تَكونَ بَطَلاً بِقدر أهمية أن تَكونَ إنسَاناً وتحافظَ بكل قوتك على إنسانيتِك، فَمَا مَعنى أن تَكونَ طَبِيباً وقد جَعلتَ مِهنَتكَ شَمَاعَة لِجمعِ الأموالِ مُتنَاسِياً آلامِ الخَلقِ وأوجَاعِهم وفَقرِهم إلَيك ..

رَحِمَ اللهُ الطَبِيب :

عَبدَ اللطَيف إسمَاعِيل الحَرِيري ..

طَبِيبٌ عَام، عَادَ من باريس إلى قريته منهياً بِعثَته قَبلَ سَنتين، تَخرجَ من جَامِعَاتِ الغَرب بَعدَ أن تَشَربَ من طِباعِهَا وهَواها مَا يُقارب السَبعَ سَنوات ..

أرسَلتهُ الدَولة بَعد أن تَخرجَ من جَامِعةِ دمشق بِرُتبةِ شَرف لِيُكمل دراسة الدكتُوراة، كَان يُراسِلُ صَحَيفَةَ تِشرِين نهاية كُل شَهرٍ ويَكتُبُ في أحدِ أعمِدَتهَا عنَاوين مُبكِية، تَشي عن حُزنِهِ الشَدِيد لبُعدُهِ عنِ الوَطن ..

كَتبَ يوماً بِالعنوان العَريض :

لَندى وَطنِي أحَبُّ إليَّ من ذَهبِ باريس ..

أيهَا الوَطن الحَبِيب ..

أُرِيدُ أن أقولَ لكَ بِأنَنَي اشتَقتُ لكَ ..

ولَكنَ الأشواقَ لا تَكفِي، لله درِكِ يا بلدي غادرتُكِ ولم تغادريني، لا أعلم هل أكتُبُ لكِ، أم أكتُبُكِ !، وبأيِّ حِبرٍ سَأنقُشك، يا دِمَائِي التي جَفَت، أنَجدِينِي لتَكونِي حِبراً لأُرسُلكِ في قوارِبِ الأشواقِ إلى ذَاكَ الوَطن، لترابِه وهَوائِه وسمَائِه..

عَبد اللطَيف الحَريري ..

فَرنسا .. باريس ..

كَانَ المُثقفونَ يَتَتبعونَ آثارَ كَلماتِهِ على أرضِ حوران، لأنهُ كَانَ الوجِهة الجَمِيلة لِأبنَاءِ حوران، بِأدبهِ وثَقافَتِهِ وتَواضُعِهِ، وبَعد سَيلٍ من الشَوقِ عَادَ إلى حُضنِ الوَطن، وإلى قَريتِهِ حَصراً، لأنَ الطِفلَ الذِي في دَاخِلِهِ اشتَاقَ إلى اللعَبِ حَافِياً في طُرُقاتِ الوَطن، اشتَاقَ لِتسلقِ أغصانِ الزَيتونِ، لِروائِحِ البَسَاطة و الطُهر ..

من أين سَتَجد دُهناً .. كَزِيتِ أُمكَ، و كَيف سَتحتَسي شَراباً كَبَابُونجِ جَدَتِكَ، وأيُّ مَجلسٍ سَتستَمتع به كمَضافَةِ وَالدِك !! ..

عَادَ إلى القَرِية، وفَتحَ مُستَوصَفاً صَغَيراً، ولَكنَ خَيرَهُ الكَثَير عَمَّ على القَرِية والقُرى المُجَاوِرة، فَكَتبَ فَوقَ بَابِهِ : هَذا من فَضل رَبي ..

نَعم هَذا من فَضَل رَبهِ، وكَيفَ ينسَى من تَشَربَ جَسَدهُ من مَاء و هَواءِ حوران !؟ ..

و يَنسَى من ! .. و يَنسَى مَاذَا !؟ ..

وبَعدَ سِباقٍ مَعَ الأحَلامِ وَصلَ الجَرار إلى مَركَزِ القَرِية المُجاوِرة، فَكَانَ هُنَاك عَشَراتُ الطَلَبَة وحَتى عَشَراتُ الأهَالِي، فَكَانَ أهِلي معي فِي قَلبي، وكَأنَ وَالدِي أرسَلنِي وَحدِي لِيقول لِي :

إذا لم تَأتنَا بِنتَائج ترفعُ الرَأس، فَأرجوكَ ألا تَأتي ..

كُنتُ أترقب تثبيت النتَائِج على حَائِطِ المَركَز، وكَانَتْ أرواحُنا مَشدودةً إلى النتَائِجِ، ومعَ كل الفَقرِ والشَقاءِ وقِلةِ الحِيلة كَانت أحلامنا أكبَرَ من الفَقرِ والجُوع ..

خرجَ المُوظَفُ يَحملُ أوراقَ مُستَقبلِنَا وأحلامنا، و طافت اللهفةُ في قُلوبنَا، ابتسَمَ المُوظَف قَائِلاً :

أيها الناس.. هَل تَعلمون أنَ أعلى نَتِيجة في سُورِيا صَاحِبهُا من القَرِية المُجاوِرة، وأن عَلامتهُ هُنَا، أتمنّى إن أتى ورَآهَا ألّا يَنسَانَا من الحلوان ..

سَقط قَلبِي من صَدرِي، وقُلتُ في نَفسِي، كَم أحسدُ هَذا الفَتى، رغم يَقِينِي التَام بِأنهُ تَعبَ وسَهرَ الليالي لينال درجته ..

تَجمهَر الفِتية بَعد أن عُلقَت النَتَائِجُ، والكُلُ بَينَ بَاكٍ وشَاكٍ، وثُلةٌ صَغَيرة خَرجت وعلى مَلامِحهَا علاماتُ السَعادةُ والبَهَجة، وسَمعتُ أحدَهم يَقول بِأنَ من نال المَرتبة الأولى

على مُستوى الجمهورِية العَربية السُورِية شَابٌ من بُصر الحَرير ..

اسمٌ ثُلاثِي ..

مُعلقٌ على مِشجَبِ الأعينِ ..

يُراقِبُ صَداهُ القَادِمُ من وَسَطِ السَراب ..

رُؤوسٌ أمَامَ كُلِ سَطرٍ، تَتَبعُ آثَار تَعبِهَا، وتَتَمسحُ بِأرقَامٍ هي من سَتُحدِدُ مصِيرها، وهِي من سَتشُقُ طَريقها، ولكَن إلى أين !؟ ..

إلى المَجهُولِ .. تَمضِي بِأحلامِكَ وأحمَالِكَ، مَكشُوفةٌ حَلواكَ للذُبَابِ، عَارية أحلامُك في مهبِّ الريح، ومَع كُلِ هَذا الدَمَار، أنتَ تَسير وتَسير وتَسير ..

غَيرَ آبهٍ لِلسَعاتِ الدَربِ ولا لأصواتِ الجوعِ التي أنهَكَتكَ، لا تَلتَفت لليباب الذي يحاصرُك من كلِ صوبٍ، أنتَ وَحدَكَ تَعلم بِأنَ سِرّكَ كَنزٌ دَفِين، لا شِعر يَطَالهُ ولا نَثرٌ يمسّه.

لم تُغرِقْكَ سيول الجهل التي كانت تتجه صوبكَ، بَل بِصَمتكَ وصَبرِكَ أغَرقتَ اللَيلَ في كُوبِ النَهَارِ ..

سِر على مَهلٍ، تَتَبع الأرقَامَ، ونَقَب عن سِركَ الذِي سقيته بماءِ الأملِ.

أخَبرنِي !؟!..

هَل وَجدَتَ سِركَ المَفقودِ بَين كَومةِ التَعبِ !؟ ..

لم أبحثْ عن اسمِي في أعَالي السُطور، فقد كُنتُ أتوقع النَجَاح والحُصول على مَرتَبة عُلِيا تُؤهِلنِي لدُخولِ كُلِيةِ الطِبِ ولكن لم أتطلع إلى المراتب العليا ..

ولَكن مَا إن تَقَلصَت رُؤوسُ البَشَرِ، حَتى أتَى المُشرفُ، يُراقِبُ تَتَبُعِي للسُطورِ والأسمَاءِ والأرقامِ، سَألني مُتهَكِماً، وكَانَ للأسُتَاذِ في ذَلكَ الزَمَانِ هَيبة ورَهبة تَجعلُ من الوِلدَانَ شَيباً :

ـ مَا اسمكَ يا فَتى !! ..

ارتعَشَ قَلبي حينَها، و خِفتُ ألّا أجِدَ اسمِي، ومَع خَوفِي من هَذا المُدَرس الذِي لا أعرفُ كم طَالباً مَرَّ تَحت شَيبهِ وعَذابهِ نطقت :

ـ أنَا اسمِي .. صَالح الحَرِيري ..

تَبسَم الأُستَاذُ ابتِسَامةً مُشرِقة من غَيرِ أن يَنظُرَ إلى وَرَقَةِ النَتَائِجِ، و تَهَللَ وَجهَهُ وكَأنهُ يَعرِفَنِي، و سَألنِي لَحَظتهَا :

ـ هَل أنتَ من بُصر الحَرير !؟ ..

تَدحَرجَ قَلبِي مَرة أُخرى، و كُنتُ أُرِيد الهُروب من نَظَراتِ الأُستَاذِ المُتَطفِلة التي كَانت تَتَبع خَوفِي منِهُ ..

ـ نَعم أنَا من بُصر الحَرِير ..

صَاحَ الأُستَاذُ بِأعلى صَوته قَائِلاً :

ـ أعزَّ اللهُ البطنَ الذي حملكَ ...

ووَضَع إصَبعهُ على رَأسِ قائِمَةِ النتَائِجِ، وقَالَ لِي :

ـ اقرأ ..

أصَابَت جَسدَي رعشةٌ قَاتِلة، رغم أننا في أوجِ الصَيف ولهيبه، ثم وَجهَتُ عَينَيَّ إلى أعلى الوَرقة :

.. صَالحِ الحَريري 290/290 أعلى دَرجة في سُورِيا ..

كَانت مَكتُوبة بِاللونِ الأحمرِ، مَع أنَنَي سبق وأن رَأيتُ خَطرهَا، إلا أنني لم أنتَبه لِتَفاصِيلها ..

يا إلهِي .. هَل يُعَقل !؟ ..

تَجمَدت أطَرافِي من شدة الصَدمة، كُل شَيء حَولِي أضحى أبيضاً، وسَقطتُ مُغمى عَليَّ ..

هَل أنَا هُنا !! ..

لا أعلَم، خَمسَ عَشَرة دَقِيقة بِتَوقيتِ الظَلامِ، وثلاث عَشَرة هَزة قَلبِية بَعِيدة عن نِظَامِ (رختَر)، ثَلاثُ صَفعاتٍ حَنوناتٍ من رَجُلٍ غَرِيب واسمهُ المِهنِي : الأُستَاذ ..

وتَلاشَى الظَلامُ شَيئاً فَشَيئاً .. حَتى ظَهَرَ أمَامِي خَيال عِدَةِ رؤوسٍ، رُبما هَي خَمسَة أو سَبعة، اللهُ أعلمُ بِعَدَدِهم، أصواتٌ مُتَشَابِكَة لم أفهم كنهها، و لا المَقصودَ منهَا ، لَفظٌ وَاحِدٌ وَصَلنِي نَقِياً :

ـ هَل هَذا صَالح الحَريرِي الذِي حَصلَ على المَرتَبة العُلِيا في التَوجِيهي !؟ ..

رُبمَا لا زِلتُ نَائِماً في مَنزِلي، رُبمَا لا زِلتُ أحلُم، وكُلُهَا أضغاث، ولَكنني كُنتُ أتمنَى أن يكون مَا يَحدثُ حَولِي حَقِيقة ..

كُلنُا يَكره الحقَيقة، فالنَفس تَميلُ إلى الكَذِب، هَكَذا هم بَنو البَشَر، نُحبُ تَجمِيلَ الحَقائِق كي تُصبحَ الحَقِيقة كِذبةً، ونُحبُ مساحيق التجميل نغطي بها عَوراتِنَا كي يُصبحَ القُبح جَمَالاً، نَعشَق كِسوةَ أجسَادِنَا بِالأقمِشَة حتى يُضحِي القُبحُ أنَاقةً ..

دَائِماً ما يكون المُجتَمع العَربي وغَير العَربي مَشغولاً بإخفاءِ المَستورِ أكثَر فأكثَر، نَكرهُ الفَضَائِح ونُحبُ دَفنَهَا مع أهلِها، مَع أنَنَا على يَقين بِأنَنَا سنَلحقُ بِهَا وبِمن كَانَ سَبَباً في فَضَحِ سِرنَا، والكِذبة هَيَ كِذبة، كَبِيرة كَانت أو صَغَيرة ..

كَيفَ نَسقُط يا تُرى !؟ ..

كُلَ شَيءٍ سَهل، وكُلَ كِذبة نَستَصغِرهَا، نَبدأ بِهَا بناء مَجدنَا كمَا نَظُن، وتَبدأ الكِذبات تَتَوالى كِذبة بَعدَ كِذبة حَتى نَجعل من كُل كِذبة لَبنةً لِنُقِيمَ حَولنَا صرحَ العَظَمة المفترضِ، ونَحنُ نَعلم بِأنَ هَذهِ العَظَمة سَتكونُ إعصَاراً مُخيفَاً يسعى

لِتدمِيرنَا عند هبوب رياحِ الحَقِيقة، أو عندما يتمكنُ منّا فيروسُ الخوف ..

الخوف، مرضٌ عضال، الخَوف منَ الذَاتِ، ومنَ الغَيرِ، ومن النَفسِ، ومن المُجَتَمع، وحتى منَ المِرآة ..

لا أحد رَاضٍ عن نَفسِهِ، و لَكَأنَ هَذهِ المَشَاكل تَنتَمِي إلى غَيرنَا، وفي الحَقِيقة كانت تَنتَمِي لنَا، لَيسَ لأنَنَا جُزءٌ منِهَا، بَل لأنهَا جزء مِنَا ، يُخيفُنَا الوَقوفُ أمَام المِرآة، ومُحَاسَبةُ الذَات، والنُهوضُ بِالنَفسِ إلى الخَير، وإلجَامُ القَلبِ بِلجَامِ التَقوى ..

يُخِيفُنَا أن نَشتَمَّ رَائِحتنَا، و نشتَمَّ عُفونَة ما خَفي من بواطننا يُخيفُنَا سَمَاعُ الصَوتِ الصَادِرِ عن قُلوبنَا، ويخيفنا أيضاً أن نسمعَ بكاءَ ذَاكَ الطِفلِ البَرِيءِ في دَاخلِ كُلِ شَخصٍ منَا، وأنَين الضَمِيرِ الذِي يَجلدُ رَاحتنَا، وعَوِيلَ النَفسِ بَعدَ كُلِ ذنبٍ تَأمُرنَا بِارتِكَابِه

الحَقِيقة ..

إنهَا السُؤالُ الصَعبُ، وحتى هَذهِ اللحَظة منَ الخَوفِ، لا نَعلم من أينَ يصدرُ هذَا الخَوفُ، ولا كَيف نوقفُ ضَجِيجَه !! ..

أجمل مَا رَأيتُهُ في هَذهِ الحَياة، هُوَ عَقدُ الصُلح مَعَ الذَاتِ، وطَردُ الظُنونِ خارجَ القُلوبِ، وجَعلُ كَلامِ البَشَرِ الذِي يُلقَى عليك كَالحِذاءِ في قَدميكَ ..

و لأنَنَي جُزءٌ منَ الحَقِيقة ..

كَانَ لِزَاماً عليّ أن أستَيقِظَ ..

مَشَهدٌ اكِتملَ نِصابُ المُمَثِلينَ فيهِ إلى أن غَصت غُرفَةُ الموجهين بِالبَشَرِ، وأصواتٌ وأسئِلة وفَرحٌ على الوَجوه، ولَكأنَ العُرسَ عرسَهُم، والعَرِيسَ عَريسهُم، أينَ أنَا ..

ـ لا تَخفْ أنتَ هُنَا بِخَير.

قَال أحدُهمُ :

ـ مُبارَكٌ يا عَماه رَفعتَ رَؤوسنَا ..

وتحدثَ الآخَر بِوجهٍ مُبتسَم :

ـ واللهِ لن يَنقُلُكَ أحدٌ إلى قَرية بُصر الحَرير غَيرِي وبِسِيارتِي الشَخصِية ..

كَانَ رَجُلاً ظَهرت آثارُ نِعمِ اللهِ عَليهِ، بِتُ أتسَاءل أينَ كَانت هَذهِ الأكوامُ البَشَريةُ التي تُحبُ الفَرح والمَرح قَبل هَذا الإنجَازِ العَظِيم، ومَع أنَ عَقلِي كَانَ في كَوكَبٍ آخَر أو بِعِبارة أصح كَانَت كُل مَشَاعِري عِندَ وَالِدي الذِي كَانَ

مُقتنعاً 100% بَأنَنَي سَوف أحصُد نَتِيجة يَرفعُ بِهَا رَأسهُ، يا لَهَا من فَرحة، ومَا أجملهَا من لَحظة ..

هَل سيَكتُبُ التاريخُ هَذهِ اللفتَة السَعِيدة ! ..

رَفضتُ أن أعَودَ إلى القَرِية بِمَواكِبِ السيارَاتِ الفَخمة، وأردتُ أن أعودَ على كَتفِ الجَرارِ الذِي قَاسَمنَا لُقمة عَيشنَا على مَدَارِ عَشرِ سَنواتٍ ..

كَبُرَ عَليَّ أن يَرانِي وَالدَي وقَد تَغيَرَ قَلبِي منذُ أولِ خطوة لِي من خَطواتِ النَجَاحِ، كَبُرَ عليَّ أن أفتَحَ بَابَ سيارةٍ فَخمة لأولِ مَرة فأركَبهُا، ويَأتي أبي لِيفتَحَ لِي بَاب غُروري، كَبُرت عَليَّ شَيبتهُ وتَجَاعِيدُ وَجهِهِ ..

لَحظة من الحُبِ ..

لَهفة من الحَنَانِ ..

رَشفة من الأمَانِ ..

في كَنَفِ ذَاكَ الرَجُلِ الذِي أدعوهُ بِأبي تُعَادِلُ مِليونَ نَجَاحٍ .. إنهُ الرَجُل الذِي رَحلت أُمهُ وهيَ مسنِدة رَأسهَا

على صَدرهِ، وهيَ رَافِعة للهِ يديها بآخرِ دَعوة لهُ، وكانت آخِر جُملة نَطَقت بِهَا :

- ربي يَرضَى عَليك يا أبو صَالح ..

كَبُرَ عَليَّ أن أعودَ إلى المَنزِل مُحملاً بأُبهةِ الغُرورِ، وإلا فَلن أَصْلُحَ ابناً لِذَاكَ الرَجُل الذِي لم أسمعهُ يَغتَاب أو يَتحدّث عن أحدٍ بِسوء ..

وَقفتُ على قَدمِي، وجَلبَ لِي أحدهُم كُوباً منَ المَاء، كُنتُ أُرِيد أن أبكِي، سَبعة عَشَرَ عَاماً ونَحنُ نَخافُ هَذهِ الوجوه التِي منحتنا العِلم ..

اليَوم .. وفي هَذا الوَقت بِالتَحدِيد، عَادَ عَلينَا نِتاجُ التَعب بالسعادةِ، بأن نَكونَ مَصدرَ سَعادة لَهُم، لأن تعبهم لم يَذهَبْ سُدىً ..

خَرجتُ من غُرفَةِ الإدارة، وكَان أمَامَ البوَابة عَددٌ كَبير منَ الطَلَبَة والنَاس، وذلك بَعد أن عَلِمَ الناسُ بِوجودي هُنَا ..

ومَا إن خَرجتُ حَتى صَاحَ النَاسُ بِأصواتِ الفَرح والإستبشارِ، رَكبتُ الجَرار، تتبعني سيارَاتٌ من قُرى مُجاوِرة ..

يا الله ، مَا الذِي يَحدُث ..

دُموعِي تَنزِلقُ على خَدي من غَيرِ إرادَتِي، وبِلا إذنٍ منِي، مَوقفٌ مهيبٌ لِفَتى لم يَعرف من هَذهِ الحَياة إلا قَسوةَ الأرضِ وخُبزَ أُمٍ أشهَى وأطَيب من نِفاقِ هَذا العَالمِ برُمتِهِ ..

أتَيتُ لأَرى النتَائِجَ وَحدِي، وكُنتُ أركَبُ جَرارَ الخَوفِ والرُعبِ، وعُدتُ غَارِقاً بِالفَرحة والصَدمة وخَلفِي أُناسٌ لا أعلم من هُم، و لَكنِي أعرِفُ بِأنَنَي رَسَمتُ على مَلامِحهم السَعادة ..

هَا هوَ البُعدُ يُظهرُ لِي خَيالَ قَريتنَا ..

قَرية هَادِئة هَنِيئة مَرِيئة يَأتيهَا رِزقهُا رَغداً من بَعدِ شَقاءٍ وتَعب، كُلُ ما فِيهَا من بَشَرٍ وحَجَرٍ وشَجرٍ جُزءٌ من أثاثِهَا ..

قَرية فَرِحة على غَيرِ عَادَتِهَا ..

كَأنَ أبي قد وَصلتهُ ذَبذَباتُ النَجَاحِ، فَأتَى بِشُبانِ قَريتنَا، وأنَاخَ أمَامَ عَتَبةِ البَيتِ عَشَرةً من الخرافِ السِمَان، وأرَاحَ أعنَاقها ليرسلَ أرواحَها إلى الله ..

و مَا إن وَصلتُ البَيتَ و خَلفِي أبواقُ السياراتِ تَضخُ فَرحهَا إلى السَمَاءِ، حَتى أمرَ وَالدِي الشُبانَ بذبحِ الخراف من غَير أن يَعلم بِأنَا ابنهُ قَد أخذَ النَتِيجة العُلِيا في سُورِيا كُلهَا ولَيسَ فقط على مستوى المُحَافَظة ..

نَزلتُ منَ الجَرارِ ..

و أقبلتُ مُقَبِلاً رَأسَ أبي و يَديه ..

كَانَ وَالدِي جَمِيلاً لَحظتهَا، طَيبَ الحُضنِ، والرِيحِ، والمَلقى، أنِيقَ المنظَرِ، ونَزَلَ النَاسِ من سيارَاتِهم كَأنهَا سَاعةُ زِفاف ..

عَجّتِ الزَغارِيد مُدوية هُنَا وهُنَاك .. وسَالتِ الدِمَاء أمَامَ البَيتِ مُعلِنَةً تَقبُلهَا للذَبائِحِ والقرابين، وتَجمعَ الناسُ بِوجوهٍ

أعَرفُهَا ووجوهٍ لا أعرِفُهَا أمَامَ مَنزِلنَا، وَقفَ أبي مُلقِياً التَحِية على من حَياه، والكُلُ يُبارِكُ لهُ نَجَاحِي :

ـ مُبارِكٌ يا أبا صَالحِ، ابنَك ذَكِيٌ حماهُ الله، لقَد حَصَد المَرتَبة العُلِيا على مستوى سُورِيا ..

و أحُدهُم يَقول :

ـ ولدك رفعَ رأسنا جميعاً ..

و أحدهُم أنزلَ سَعادَتهُ قَائِلاً :

ـ يا أبا صَالح بِاللهِ عَليكَ لا تَردَنِي، أدعوكم غداً جميعاً لوليمةٍ أُقدمها كهدية لابنك على نجاحه ..

لم يُصَدق أبي بِأنَنَي أتَيتُ لهُ بِدرجة، قَد حَطمت الرَقم القَياسِي على مستوى سُورِيا بِأكملهَا، بِهذهِ الفَرحة وفي تلك اللحَظة شعرت وكَأنَنَي أزحتُ تَعبَ عُمرهِ بأكملهِ، أيُعقل أنْ تكسو السَعادة وَجهَهُ في لَحظة !! ..

و لِما لا، وإلى هَذا اليَوم، وأنا لا أعرف ما الدَعوة التي طوى عُبودِيتهُ لله بِهَا، حَتى حَصَلتُ على هَذهِ النَتيجة المبهرة ..

أربَعِونَ دَقِيقة بِالضَبط ..

ورُفِعَ أمَامَ مَنزلنَا بَيتُ شَعرٍ يَتسع لِثلاثةِ آلآفِ رَجل، وصُفت الكَراسِي فيهِ، وأُشعِلت الأضواءُ تَحتَ كُلِ عَمودٍ، وتَتَالت عليه الوفود قادمةً من هُنَا وهُنَاك، وجهَاء، ومَسؤولون، ورِجَالُ علمٍ، ورِجَالُ دِين، ورجال من منَاصِبَ عليا في الدَولة أتَت منَ المُحَافَظة، وحَتى مُحافِظُ دَرعا بذاته أتى ..

وغَرِقت خَيمةَ الفَرحِ بِالأحبة والمُهنِئِين ..

عِشتُ في بحبُوحة من السَعادة ..

أسبوعٌ كَامل ونَحنُ نَستَقبل ونُودِع أبنَاء الوَطن، أتونَا من كُلِ شُقوق الفَرحِ لِكي نَقتَسِم كَعكَةَ النَجَاحِ مَعاً، كُنت أرى النَاسَ يَتَهافتَونَ من كُلِ حَدبٍ وصَوبٍ قَد لَبسِوا على وَجوهِهم ابتِسَامَةً لا نَظيرَ لهَا ..

كَمَا نَرتَدِي أثوابَنَا، فَنحنُ خُلقنا مُجَردِين، نَعشَقُ التَلونَ وتَنسِيقَ النِفاقِ حَتى يَكون على مقاسِ تَعَاستنَا أو سرورنا ..

أُصْدِرت الصُحف على مَدارِ ثَلاثةِ أيامٍ وفيها يتألق اسمِي مُرافِقاً لاسمِ أبي، لَم يَتَغَيرْ ذَلكَ الرجُل، لم تَظهَرْ عَلِيهِ آثارُ الكِبرياء ..

إنهُ هُو ..

حَجرٌ بَازِلتِي، دَاخِلهُ مِعصَرة زَيتُونَ، إنهُ ابن أنثَى أُمِية لا تَعرِف منَ الحَياة سِوى ابنٍ يَتيمٍ، كَانَ يُطلِقُ عَلِيهِ النَاس، ابنَ الشَهِيد ..

وإكَراماً للجُهدِ الذِي قَدمتهُ، والنَتِيجة التي حَصلتهَا، مَنَحتني الدَولة مُرَتّباً لا بَأسَ بهِ، ولَكن كَمَا نَقول في مَثَلِنا الشَعبي :

(بحصَة تُسِند جَرة)

أحَبَ أبي أن يَذهَب مَعِي إلى العَاصِمة دِمشق، لأُسجِل في كُلِية الطَب البَشَرِي، كَانت أحَلامِي معقودة بِسَعادَتهِ، لأنهُ الرَجل الذِي أسعَفنِي في الجُزءِ النِهَائِي من مرحَلةِ التَوجِيهي ..

لم يَترك أبي حَياتهُ، ويَتَجه بِذاتِهِ إلى الوَجَاهة، ولَكننا اكتَشَفنا بِأنهُ قَد أودعَ مَبلغاً ضَخماً في البَنكِ لِيطَمئنَ على مُستَقبلنَا، صُدمتُ وَقتهَا عندمَا وَقفَ عند أحدِ فروع بَنكِ دِمشق يَسحبُ بَعضَ المَالِ ..

لم أسألْهُ أبداً، و لَكن عَرفتُ بِأنهُ مَنعَ جوعَه وتَعَاسَته من أشَياء كَثَيرة، في مُقابِل أن نَعِيشَ كِراماً ..

و بِالفِعل عِشنَا كِراماً ..

مَرفُوعِي الرَأسِ والهَامَة، وَحدهُ ذَاكَ الرَجُل لم تَشبهُ شَائِبة الغُرور، ولم يَداخل قَلبهُ دَرنُ التَعَالي على خَلق الله ..

لم نَقفْ طَوِيلاً أمَامَ طَابور الطَلبة، لأنَ الذِي يَقف الآن هُو شَخص حَصَد المَرتَبة الأولى في التَوجِيهي، صَاحوا باسمِي وأنَا في مُنتَصِف الصَف، ولَكنَ أبي أمسَك بيَدِي، وقَال :

ـ يابَّة بالدور.. من العَيبِ أن لا نَحتَرم الدور، هَؤلاءِ النَاس لَهُم مَشَاعِر والله أعلم كم من الوَقت مَضَى عليهم وهم وُقوفٌ هُنَا ..

طَابور فيه مَا يُقارِب الخَمسِينَ فَتىً، أتوا من كَافَةِ مُحَافَظَاتِ الوَطن، بَيني وبَينهُم قواسمٌ ثُلاثِية من التَعب، ومَسَافةُ طَرِيقٍ منَ الشَقاء ..

والكُلُ هُنَا يعزفُ على مستوى إخَلاصِهِ للعِلم، فَمنهُم من أتى مُتَفاخِراً، ومنَهُم من أتى لإثباتِ وجودهِ في المُجتَمع، ومنهُم من أتَى مُكَرهاً، ومنهُم من حَبى على قَلبهِ حُباً بالطِبِ، ومَا بَدلوا تَبدِيلاً ..

الكُلُ يَنظُر إلى أبي، إلى شَكَلِهِ الغَريب، بالسِروالِ الأسود المميز بِالشنتَانِ الطَوِيل، والمِعطَف العَسَكري الَباهِت، وشِمَاغه الرِيفي الملون بِالمُربَعاتِ البيضاء والسوداء، وعِقالهِ شَبه المُتَآكِل، وتَجَاعِيدِ وَجهِهِ المُرتَبة كَأرضِنَا المَحروثَة، وانحنَاءِ ظَهرهِ المُتعَب على مَقاسِ رَاحتنَا، ولَكنني كُنتُ مُفتَخِراً بهِ أمَامَ هَذهِ الأعيُنِ المُتسولة الباحثة عن أيِّ مَشهدٍ باعثٍ للسُخرِية ..

إنهُ الدَرس الثَانِي الذِي كَانَ لِي .. في ذات اليَوم الأول الذي ذهبت فيهِ مَع أبي إلى العَاصِمة، يَقول الدَرس :

مَهما مَنحَكَ اللهُ منَ الهَيبة والمِنعة، فَلا تَتَعالى بِهَا على الخَلقِ، ولا تَجعلها وَسِيلة لِتَحرمَ الأخَرِينَ من الرَاحَة، فَالدُنِيا تَدور، وإن أدارت عَجَلتهَا عَليكَ فَلا تَلومنَّ إلا نَفسَك ..

وَصَل الدَورُ إلينَا بَعد سَاعة ونِصف من الإنتِظَارِ وقوفاً على سَاقي كَرامتنا، لم نَتعب أبداً، ولَكننا لو حَرمنَا

الأخَرِينَ من دَورِهم لكان هَذا الأمر سَيُتعِبُ ضَمَائِرَنَا الحساسة بِالفِطرة، وأحشَاءنَا التي لم تَتَلوث أبداً ..

أعمَارنُا بحجمِ ثَراتِ تُرابنَا الحورانِي، ولَكنَ مَلامَحنَا لم تَبلغ الكِبر بَعد، وأمَانِينَا مُسَورةٌ بِالحُبِ، إلّا أنَّ حَشَائِشَ الشَرِ لم تَنبت فِينَا، لأنَ أفكَارنَا وعُقولنَا مَحدودة، والفَائِز مَنْ عَمِل في دنياهُ خَيراً لآخِرته...

مَفطومونَ على أن لا نَمدَ أنظَارنَا إلى مَا حَرمَ اللهُ، وإنَّ النَقِي يَموت على مَا عَاشَ عَليهِ، وإن أردتَ معرفة السِر في ذلك، فهو صَفاءُ الذَاكِرة، فَإنَنَي أُرْجِعُ الفَضلَ لِريفنَا الخَالِي مِن مُقومَاتِ الفَسَادِ الأخَلاقِي، فَلا مَكَانَ لِقَلة الأدبِ بَينَ أُنَاسٍ عُقولُهم كَالحِجارة بَل أشَدُ قَسوة، فالقُلوب أنقَى من مِياهِ السَلسَبيل ..

أمَامَ مَكتب التَسَجيل، قَدمَ أبي جَمِيع الأوراقِ المَطلوبة، وقَد سُرَّ المَوظَفُونَ بِوَالدِي وتَواضُعِه، وقَال أحَدهُم :

ـ يا أبا صَالح، هَذهِ أولُ مَرة يَأتينَا فيها شَخص يُسَجل ابنهُ وهو بِهذا التَواضُعِ، والله إنك لإنسَانٌ مُحتَرم، ونِعم التَربِية هَذهِ ونِعمَ الأبُ أنت ..

و تَطفل أحدهُم قائِلاً :

ـ يا أبا صَالح، سيسكنُ ابنُكَ في السكنِ الجامعي أم في سكنٍ خاص ؟

ابتَسم أبي قَائِلاً :

ـ والله يا عَم أُفضّلُ سَكن الجَامِعة ..

تَدخَل الثَالث قَائِلاً :

ـ ولَكن يا أبا صَالح .. السَكنُ الجَامِعي لَيس على مَا يُرام !! ..

رَدَّ أبي بِحكمتهِ قَائِلاً :

ـ يا عَماه .. الذِي يُريد أن يَدرُسَ ويَتفوقَ، لا يَهمهُ المَكَان ولا الزمَان، وإنَي وَكلتُ أمري وأمرهُ إلى الله تعَالى.

إنهُ أبي ..

الرَجلُ الذِي يَتكلُ على اللهِ مُوقناً بِأنهُ سَيسَتجيبُ لهُ دَعوته، الرَجل الذِي أستَمعُ إلى حِكمتهِ لأول مرة على مَسَافَة أقرب من حَبلِ الوَرِيد إلى القلب، الرَجُل الذِي لا أُصَدق بِأنهُ كَانَ نَوعاً منَ الحَجرِ، واليَوم هُوَ نَوعٌ من الحِكمةِ والعِلمِ، الرَجلُ الذِي أتيتُ من صلبهِ وحلمه وصَبرهِ، إنهُ الشَخص الوَحِيد الذِي أمتنُّ لهُ في كُلِ مَرحلة نَجحتُ بهَا في حَياتِي، لم نَكن من أصَحابِ الأحلامِ الشَاهِقة، كَانت الكَلمة الوحيدة التي تُسعِدهُ ولا يُظهر سَعَادتهُ بها أمَامنَا هيَ الكَملة التي نُلبي بِهَا أمرهُ :

(عُونك يابَّة)

عُونَك يابَّة ..

أول كَلمة في البِرّ ..

نتَعلمُهَا قَبل أن نَخرجَ منَ الأرحَامِ ..

إن الخُروجَ عن هَذهِ الكَلمة حَربٌ لَكَ في دُنِياكَ قَبل آخِرتِكَ، و طَالما أنت في حَرمهَا منُصَاعٌ لقَوانِينها فأنَتَ في أمَانٍ وسَلامٍ مُتلازِمَين إلى أن يَرثَ اللهُ الأرضَ و من عَليهَا ..

كُنتُ دَائِماً أعتَقدُ بِأنَ الشَيطَانَ لَيسَ لهُ علاقَة بغوايتنَا، لأنَ كُل نَفسٍ بِمَا كَسَبت رَهِينة، وكُنَا نَرى أنَّه ما من مَعصَية كَمعَصيةِ الخَروجِ من عَباءةِ الأبِ، لأنَكَ دونَه عَارٍ من كُلِ شَيء، وحَتى عَارٍ من نَفسِكَ ..

اسَألْ أولئِكَ الذِينَ فَقدوا آباءهم وهُم في مُنتَصفِ طَرِيقِهم إلى المُستَقبل، تَخَيل بِأن يُقطع منِكَ خَيطُ الوَصلِ والحُبِ ومن كُنتَ تَعتقد بِأنهُ سَندٌ لَكَ و لِمُستَقبَلِكَ !! ..

يا الله ..

مَاذا سَيحدُثُ لكَ ..

أنتَ لَستَ جُزءً منهُم فقط ..

بل أنت بكُلك يجبُ عليك أن تعملَ لتسعدَهم وتحققَ أحَلامَهم ..

فَمهما حَاولتَ أن تَرسُمَ مُستَقبلاً رَبيعِياً خَالٍ من وُجودِهم، فَعَليكَ أن تَعرِف بِأنَ بَردَ شِتَائِهم هو دِفء لمَاضِيكَ ومُستَقبلكَ، فَقط لأنكَ جُزءٌ منهُم، وكُلٌ لِذَاكِرتِكَ وذَاكِرتهُم، فَمن الواَجِبِ عَلِيكَ تَقدِيسُ وجودِهم وفَنَائِهم ..

لأنهُ أبي ..

أحبَبتُ أن أنحَتهُ بِالكَلماتِ، وأُلمعُ صَداهُ بِالعِباراتِ، إنهُ الشِيفرة السرِية لِكُلِ خَطوة، لكُلِ أمل وكُلِ نِجاح وكُلِ هَدف ..

فَكَلمَا زادَ تَواضُعاً، كُلمَا زَادَ رِيحَهُ طِيباً، وتَركَ خَلفَهُ آثارَ طُهرٍ وجَمَالٍ، في يَومٍ وَاحدٍ فَقط، أذكُرُ كَيفَ سَجَلنِي في كُلِيةِ الطِبِ والسَكنِ الجَامعِي، وكان كُل ذاك بتَوفِيقٍ من الله، وجُهدِ أبي وسعيه ..

كَانت دِمشق جَمِيلةً يومهَا ..

أبهَى من كُلِ شَيءٍ عرفته، وعلى تلك الشَوارِعِ كان كُل شَيءٍ يبدو شَهياً ومُغَرياً، كَانَ أبي حينهَا يُمسِكَني بَيدي وأمشِي خَلفهُ كَمَا الأطفَال، عِدة أحَاسِيس انتَابتنِي، أولهَا أننَي كُنتُ خَجولاً من هَذهِ الطَرِيقة بِالسَيرِ مَعهُ، أنَا ذَاكَ الفَتى الذِي كَانَ يَحرُثُ الأرضَ في أسبوعٍ وَاحدٍ بِجَرارِهِ، أعودُ اليومَ طِفلاً صَغيراً يَخَافُ عَليهِ وَالدهُ من حَضَارة ولدت بِالأمسِ القَرِيب، كُنَا نَرى الرُقِي والحَضَارة مَفَسدةً للقَلب وللضَميرِ، لأنَنَا وَظفنَا الرُقي الحَضَارِي على سِكة مُخَالِفة لِسَكةِ إنسَانِيتنَا، نبتَت لنَا قُرون وأنَياب ومَخَالب، وجَعلنا التَمدُنَ نَوعاً من أنواعِ الأسلحة التي نَقتُل فيها بَعضنا البَعض، حَتى كِدتُ أقولُ في نَفسِي :

لنَقاءُ هَواء الريفِ ورَوائِح رَوثِ البَعيرِ والحَشَائِشِ الفَاسِدة التي تَنبتُ في الأراضِي وعلى جَنباتِ الطُرقاتِ، أطهَرُ من ألف ألفِ عَاصِمة ومَدِينة، ولكِن هَذي دِمشق كمَا قَال عَنهَا شَاعِرُنَا الكَبير نِزار قَباني رَحمهُ الله :

هَذي دِمشق .. و هَذي الكأسُ و الراحُ ..

إني أُحبُ .. وبَعض الحُب ذَبَّاحُ ..

أنَا الدِمشقيُّ .. لو شَرحتمُ جَسَدي ..

لَسَال منهُ عنَاقِيدٌ .. و تُفاحُ ..

لا تَلوموا عُشاقَ العَواصِم، ودَعوهُم في سَكرتِهِم هَائِمين، وبَينَ الشَوارعِ الغَارِقة بالحَافِلاتِ الكَبيرة والصَغيرة والأرصِفة الغَارِقة بِالمَارة، وأشكَالِ البَشَرِ واللهَجَاتِ وألوانهِم وحَركَاتهم، كَان أبي يَسيرُ بِي إلى المَجهُول، لم يَشعر بالحياء بسبب لِباسِهِ القروي، وأنا كذلك لم أخجل به لأنهُ أعلم بِمصلحتِي، فَلا يُعقل لِرجُلٍ بَلغَ منَ الشَيبِ عِتِياً، أن يَرمِي ابنَهُ في مَهبِ الجَهلِ والضَياع ..

دَخلنَا إلى مَتَاهة يَحجُ إليها البَشَر، وقد كَان مَكتوباً عندَ فوهةِ المتَاهَة :

سُوق الحَمِيدِية ..

أُنَاس لا تَعرف مَا هيَ مِهنتهُم، ولا من أينَ أتوا، ولا تَعرف حتى اللغُاتَ التي يَتحدَثونَ بِهَا، شَعرتُ بِأنَنَي في وَطنٍ آخَر، بَينَ أُنَاسٍ لَيس بَينِي وبَينهُم أيُّ قَواسِم مُشتَركةَ،

رُبمَا تَجمعُني بِهم هَذهِ المَدِينة الغَرِيبة التي مَاتَ فِيهَا الزَرع ونَبتت بين جَنَباتِهَا الأبنِية الحدِيثة والمعَامِل غَير البِيئِية والأسواقِ الشَرِهة، هُنَا النَاسُ يمشون على مَهلٍ، ولَكَأنَ الزَمنَ قَد تَوقّف عِندَهم، السُرعةُ هُنا للمَالِ والتَسوّقِ والتَبهَرجِ وارتِدَاءِ الأقنِعة فقط ..

عَالمٌ مُبطن مليءٌ بِالبَهرجة والتَكبُرِ والتَفاخُرِ الكَاذِبِ، شَهيُ القَضمِ، ولكنه لا يُستَساغ ولا يُبتَلع، ومع ازدحامِ السوق بالمتسوّقين وأصحاب الحَقائِب المَحشوة بِالمَالِ الحَلالِ أو رُبمَا الحَرام ، إلا أنَ ظَاهِرة التسوّلِ مَعقودةٌ في كُلِ زُقاق ..

والذِي يَدعوكَ للدَهَشة بِأنَ الآياتَ القُرآنِية مَنقوشَةٌ على كُلِ جِدارٍ عتِيق، و كَلامُ اللهِ يُبثُ من كُلِ مَتجرٍ وعلى مَسَامِعِ المَارة و المُتسوقِين ..

إنهُ الوجه الحَقِيقي لِمدِينة تَحملُ بَطَرَ البَهرجة والتَكبُرِ، الوجه المُخيف للمَجَاعة والفَقر، أمَا أصحَاب الطَبقة الوسطى فَهُم في نِزاعٍ مَعَ الذَاتِ لأنهَا طَبقةٌ مُثقفة وتُحبُ

النَأي بِالذَاتِ بَعِيداً عن الغِنى والفَقرِ، أشَياءٌ كَثَيرةٌ تُوحِي لَكَ بِأنَ هَذا العَالم لَيسَ مُتَزَناً أبداً، حتى أنكَ تَقول في قَرارِة نَفسِكَ :

كَيفَ لإنسَانٍ أن يَفتَرشَ الطُرقاتَ والأرصِفة وعندهُ شَيء من الكَرامة والضَمير، بل ويَستطِيع أن يَعمل ويُعِيل نَفسهُ ويتَكفف عمّا عندَ النَاس .. كيف له أن يَمدَّ يَدهُ لعَامةِ البَشَرِ !؟ ..

أيُعقلُ أن تَكونَ عَاصَمة للمتُسولِين، انُظُر إلى وُجوهِهم وإلى لباسِهم وحَركَاتِهم البارعة في تمثيلِ دَورِ البُؤسِ والفَقر، أيُعقل أن تَكونَ هَذهِ مِهنة !؟ ..

إنهُ لَمنَ العَار أنْ يكونَ الدينُ سِلعةً وقِناعاً في عَاصِمة كَانت مَهداً لآلِ بَيتِ رَسولِ الله وللأموِين والعَباسِيين والصَالحِين والعُلمَاءِ والأولِياء، أيعُقل أن تُبنى الأضَرحةُ وفَوقهَا القِبابُ على قَبرٍ رُبمَا صَاحبهُ قد أصبح غُباراً، بَينما أُناسٌ لا زَالوا على قَيدِ الجوعِ يَفتَرشُونَ الأرصِفة وعلى عَينَك يا تَاجِر !؟..

مَا هَذا الهُراء ! ، مَا هَذا الإستِخفافُ بعُقولِ وعَواطِفِ البَشَرِ، و حَتى أن بيوتَ اللهِ من مِساجدَ وكنَائِسَ رُبمَا كَلفت مُنافِقِيهَا مَلايين الليراتِ السُورِية، أولئك المنافقين الذين لم يَتكلفوا العناء لتحرِيكِ إنسَانِيتِهم البَتة ..

هَل نصلُ إلى اللهِ من خِلال المساجدِ والكنائسِ والصوامعِ، واستمرارنا بالنِفاق والإنفاقِ على بهرجةِ المظاهر؟؟!!

لا والذي جمَعني وإياكم في كِتاب إنَّ الطريقَ إلى اللهِ أقصرُ من ذلك، سمعتُ ذات يومٍ أحدَهم يقول:

لقمةٌ في بطنِ جائع خيرٌ من بناءِ جامع..

لسنا بصدد قائلِ هذا الكلام، ولكن إن فكرنا بعقلانيةٍ يوماً ما فسنفهمُ كنهَ هذا الكلامِ الذي يثبتُ رفعةَ ومكانةَ الإنسان.

الإنسانُ الذي هو جوهرُ الدياناتِ السماويةِ والوضعيةِ، كلُّ الذي نحتاجه كي نلحقَ بركبِ الحضارةِ هو أن نفهمَ أن الحضارةَ تبدأُ عندما نبني ذواتَنا، ونطورُ أرواحنا، ونفتحُ عقولنا، هذا كلُّ ما ينقصنا.

ويحضرني الآن قولُ نزار قباني عندما قال :

خلاصةُ القضية توجزُ في عبارة، قد لبسنا قشرةَ الحضارة والروحُ جاهلية..

بَينَ حوران ودِمشق فَاصِلٌ جَبلِي وكَرامة إنسَان ..
كَأنَ وَالدِي أرَادَ أن يُرِيني دِمشقَ عَن قُرب، أرادَ أن ألمُسَهَا بِنَظَراتي، وأن أكتَشفَهَا بِحَاسَةِ الشَمِ لديّ، حَتى وَصَلَ بي الحَال لأن أقول لَهُ :
ـ هَل سَنتَأخّر هُنَا يَابَّة ! ..
لم يُجب على سُؤالي، ولكن قَال :
ـ يالله يا يابَّة .. حَان وقتُ عَودتِنا ..
كَأنَّ دِمشقَ كَابوسٌ، هَذا العَالمُ لَيسَ لَي، وهَذا الضَجِيج لا يُنَاسِبُ مزاجِي، وهَذهِ الحَضَارة المُرقعة لَيست بُغيتِي، وأنَا ابنُ الأرضِ الذِي لا يَخون زَيتُونَهُ ولا قَمحَهُ، وهُم أبنَاءُ الشَوارِع المُغطاة بِالغُرباءِ وأحَفادِ التَارِيخِ والمُستَقبل المَجهُول ..

لَم يَأتِ أحدٌ إلى هَذهِ المَدِينة إلا ليُشبعَ غُرورهُ، لأنَ أوّل مَشهدٍ رَأيتهُ من أبنَاءِ الطَبقة الكَاذِبة أنهُم لا يَرونَ البَشَرَ الذِينَ من دُونهم ..

أولُ مَشهدٍ أدخُلُ بِهِ أروقَة الجَامِعة، كَانَ أبي بِجَانِبي، والجَميلُ أنهُ لم يُغَيرْ عقدةَ جَبِينِه ولا هِندَامه، ولا مَشَيته، ولا حَتى طَريقَتَهُ في الحَديثِ ولا بِالأمرِ أو بِالنَهِي ..

كَانهُ أرادَ أن يَقولَ لِي :

أنَا اليَوم مَعك .. ولَكني غداً لَستُ مَعك ..

لَقد كَانت أفعَالهُ تَشِي بِحكمتهِ، حَتى اتخذتهُ رمزاً لي ومُربياً صَالِحاً ..

جَميلٌ أبي بِكُلِ تَجَاعِيدِه وشَيبِ رَأسه، وبصَمتهِ قَبل الغَضَب، وبصَمتهِ بَعدَ الغَضب، ومَا أجملَ ذَاكَ اليَوم عندِمَا حمَل حَقائِبي بَكفِيهِ إلى مَوقفِ الحَافِلة في أولِ يَومٍ جَامِعي ..

جَمَيلة تِلكَ اللحَظَات بِحُزنِهَا وفَرحها، لَقد رَفضتُ أن يَحمِلَ حَقائِبي، ولَكنَهُ أبىَ، وأصَرَّ على حَملِهَا، قَالَ لي وَقتهَا :

ـ عِندمَا يُصبح عندكَ أولاد ويَصلون إلى هَذهِ المَرحلة من العِلمِ ، تَتَمنى لو أنَكَ خَادِمٌ لَهُم، لأنهُم حَقَقوا لَكَ حُلماً كُنتَ تَتَمنَاهُ طويلاً ..

حَقِيبتِي كَانت مَحشوة بِكُلِ مَا هُو جَدِيد، أرَبعة قُمصَان على مقاسِ الذَاكِرة، وبِنطَالانِ قُصَّ مَا طَالَ منهُمَا من هَمٍ، وجَوارب ..

ينتابني الضحكُ (هاهاها) ....

هذه أولُ مَرةٍ أرتَدِي فيها الجواربَ، أشعرُ بِأنَ هَذهِ القَدم لَيست لَي، ولو لا حَيائِي من أبي لَخلعتُ حِذائِي وجَردتُ قَدمِي من الجوارب، وحَتى الحِذاء قد اشتَراهُ وَالِدي وَاسِعاً قَليلاً ..

ولَكن لا يُهم ..

كَانَ جَمِيلاً ولامَعاً ذُو خُيوطٍ طَوِيلة، عَقدتُهُ عِدَةِ مَراتٍ وكَراتٍ حَتى لا يفلتَ على هواه، وثَلاثةُ ألواحِ صَابون حَلبي كَمَا طُبعَ على وَجْهَتِهِ، و حَتى ثِيابي الدَاخِلية ..

هَا ها ها ..

كَانت وَاسِعة للغَاية ، حَتى أكَادُ أتعَثَر بمسَاحَتِهَا ، وأوراقٌ و أقلامٌ و كُرَاسَاتٌ لأولِ مَرة أحملُهَا ..

مَا إن وَصَلتُ المَقهى حتى لَاحَظتُ في مآقي ذَلكَ الرَجُل دَمعةً تَخوضُ صراعاً مَعَ الكَبرِياءِ، تستسلمُ لمصيرِها حيناً، وأحياناً يمنعُها الكبرياء فتتدثرُ بأجفانِه، كَانت دَمعةً نَقَيّةً ، أصدقُ من عَطَاءِ هَذهِ الأرضِ .. كِدتُ أن أمسَحهَا بَيديَّ، ولَكنَهُ مَسَحهَا بِردَائهِ، كَأنهُ أرَاد أن يُخفِي سِراً ..

انتَابتني غَصَة في حَلقِي، كِدتُ أصرخُ بَاكِياً مطلقاً العنانَ لدموعي، ولَكن رجُلَ المَواقِفَ أخَرجَ منديلاً من جَيبِهِ مَطويّاً عِدَةِ مَرات، ومَدَّ يَدهُ فأعطاني إياهَ..

ـ ما هَذا يَابَّة !؟ ..

-لا ترني دمعتك، قالها ثم أسندَ رأسَه على يدهِ وأخذَ يحدّق بي، أطلق تنهيدةً عظيمةً، وكأنه قالَ في خلجاتِ نفسه:

إنّ للفراقِ سَكَرات..

أرَدتُ أن أقتَربَ منه، أُريدُ أن أضمَّه، وأعودَ طِفلاً إلى أرضِهِ، وأحمِلَ تَعبَ السنِينَ على كَاهِلي وضَعفي، وأُجبرَ انِكسَارَه بسَلامِ فِطرتِي، أول مَرة أرى فيها يَدهُ تَرتَجف، كَأنهُ أرَاد أن يَقول لي :

ـ عندَما أرَدتُكَ أن تَقِفَ بِجَانِب ضَعفِي، كَسَرتنِي بِرحِيلكَ ..

لم يَكن همي تِلكَ العَاصِمَة ومَا فِيهَا من أحلامٍ وَهمِية ، ولم تؤرق رَاحةَ صَدري تِلكَ الكُتبُ الكبيرةُ التي تَشفِي المَرضَى بِإذنِ اللهِ، وَلكن عنِدي هَمٌ وَاحدٌ فَقط ..

أبي ..

ذاك الرَجُل، كَيف سَأتُركُ لهُ وَجعَ هَذهِ الأرضِ، ومن سَيُعِينُهُ، أرَدتُ أن أقولَ لَهُ شَيئاً، و هَذا الشَيء أخَافُ أن يزعِجَهُ، تَشَجع أيهُا القَلب ..

ـ يَابَّة .. عَزَ عَليَّ وَداعُكَ، وأنتَ الآن بِأمسِ الحَاجة لِي، وأنَا مستعدٌ لأتَخَلى عن هَذا الحُلم، كي أقفَ مَعكَ أمَامَ قَسوةِ هَذهِ الأرض ..

ابتَسمَ حَبيبَ الرُوح حَتى زَال نِصف هَمّي ..

ـ يا حَبيبي يا يابَّة .. أنَا مُستَعِدٌ أن أبيعَ جَمِيعَ أملاكِي مُقَابِل أن أرَاكَ طَبِيباً تُسَاعِد النَاس وبالأخصِ أولئِكَ الذِين لا حَول لهُم ولا قُوة .. هُوَ طَلبٌ وَاحِدٌ فَقط أريدهُ منِكَ قَبل أن تُفارقَنَا ..

ـ لا تَنسَ بِأنَكَ ابنَ أبٍ أُمِيٍّ لا يَعرفُ كَيفَ يَكتُبَ اسمهُ، وابنَ امرأة مِسكِينة كَانت تُطعِمُكَ الخُبزَ من رَاحةِ كَفِهَا، وأنَ هَذهِ الارضُ أرضُكَ وهَؤلاءِ النَاسِ أهلُكَ، وأنكَ أمضَيتَ ثُلثَ فُتوتِكَ وطُفولتِكَ تَمشِي حَافِياً، لَيس فَقراً، وإنمَا لِأُعلمُكَ كيفَ تَمِشي مَرفوعَ الرأسِ إذا دارت عليك الأيام حَتى ولو كُنتَ عَارِياً .. لَيسَ عَيباً أن تَكونَ فَقِيراً، ولَكنَ العَيب أن تَمُدَ يدك للنَاسِ وأنتَ قَادِرٌ على العملِ وجلبِ المَالِ ..

ـ حَبيبي يا يابَّة .. حَذارِ حَذارِ أن تَطلُبَ أو تَستَدِينَ من النَاسِ، فَصَاحِبُ الدَينِ صَاحِبُ حَقٍ ودَينهُ مُؤرقٌ للراَحة، فَمَا دُمتُ أنَا على قَيدِ الحَياة، فَجَيبِي هُو جَيبُكَ، وأرضَي هَيَ أرضَكَ، والذِي في فَمِي خُذهُ وضَعهُ في فَمِكَ ..

ـ خُذ منِي هَذا المَبلغ منَ المَالِ، وفي نِهَايةِ كُلِ أسبوع أتمنّى أن تَعودَ إلى بَيتكَ، هُنَاكَ أُمٌ حَنون قَلَبُها يُطبَخُ على حَطَبِ مَغيبكَ، وهُنَاكَ أب لا يَملكُ في هَذهِ الحَياة سِواكَ .. إياكَ وصَدَاقَة السوءِ، فَأنَا لم أُربِكَ لِتَكونَ وَجبة دَسمة لذِاكَ الصنفِ الذِي لا يُفكر إلا بِنفسِهِ، أدعوك لمصاحبةِ الصَالح والفَقير والذِي قَلبهُ على بَني البَشَر، فَليسَ كُلَ من قَال :

أنَا أُصَلّي .. يَعنِي أنهُ خَلوق .. فَالكَلامُ شَيء .. والفِعلُ شَيءٌ آخَر .. وإياكَ أن تقربَ بنَات الناس بالسوءِ، فَكمَا عندنا نساءٌ نخاف عليهنّ، هنّ أيضاً لديهنّ من يخاف عليهنّ، عِندنَا أعراض ولَكَ أخوات، فَمن رَاقَب أعراضَ خَلقِ اللهِ، أرسلَ اللهُ من يراقب له عِرضَهُ،

(كما تدين تدان) ..

ألف وخَمسُ مِئةِ ليرة سُورِية ..

وَضَعهَا في يَدي، كَأنمَا وَضَع شَقَاءَ عُمره في شُقوقِ رُوحِي، تَخَيل أنَ مَنزِلنَا بِكَافَة مَا فِيهِ من كَوادِر بَشَرِية لا يُنفِقُ عَليهِم ألف ليرة سُورِية، بَينما يَضَعُ وَالدِي مَبلغاً يَكفيني شَهراً في أولِ يَومٍ لَي ..

أول مَرة في حَياتِي أحملُ هَذا المَبلغ ..

أيُعقل بِأنهُ يُرِيد أن يَختَبرنَي بِالمَال ! ، أيعقل بِأنهُ غَير وَاثِق من تَربِيته ! ، أم إنهُ كَرمُ الآباءِ على الأبنَاءِ المُنتَفِخين بَطَراً !، أم أنهَا أضغاثُ أوهَامٍ فَقط ! ..

أعَدتُ لهُ ألفَ ليرة رَاجِياً إياهُ :

ـ يابَّة .. هَذا المَبلغ كَبير جِداً، خَمسة مِئةَ ليرة تَكَفِينِي وتزيد، أتمنّى أن تَقبل عَرضي ..

أخَّ وَالدِي نَفساً عَمِيقاً ، ورَدَ ما بِيدي من مَالٍ قَائِلاً :

ـ يابَّة، دَعها مَعك .. فَلا حَاجة لنَا بِالمَال ..

لم أرفَض عَرضَهُ، مَع أنَ أُمي جَعلتني أحمِلُ من الأوعِية الزُجَاجِية والبَلاستِكِية من المؤونة كَزَيتِ الزَيتون،

والزَيتون، والجُبن، واللبنِ المُجَفَف، والمَكدوس، والخُبز المَنزلِي الطَازَج، والبَسكويت وحَلوِياتِ الرَاحة، مَا يَجعلُكَ لا تَحتاج لأي قرشٍ من هَذا المَبلغ ..

على مَسافةِ وداعٍ وغُبارٍ قادم مَعَ الرَحيل ظَهرت الحَافِلة التي تنقلُ المُسَافِرينَ إلى دِمشق ..

وَقفَ أبي، واحَتضَنَنِي بِعُنفٍ، يا الله ..

مَا أجملهَا ومَا أقسَاهَا من لَحظة في آنٍ وَاحِد ..

شَعرتُ بِأنَ أضلاعِي تَكسَرت بَين ذِراعَيهِ، وهَوَ يَقول لَي بِخوفٍ وحُزنٍ وصَوتٍ خَافتٍ :

ـ يابَّة انتَبه على نَفسِكَ، يَابَّة إياكَ ومَا حَرمَ الله، يابَّة لا تُضِيع الوَقت ..

وَصَلت الحَافِلة لمَوقِف مُستَقبلي، وحَمَلتني وتَركَتُ المَاضِي خَلفِي، مَاضٍ بَسيط .. وأبسَط مما أتَوقع .. ولَكنهُ أنقى من المُستَقبل الذِي لا أعرفُ مَا يَحملهُ لِي، وأخيراً وَصلتُ إلى دِمشق ..

عَاصمة الطُموح، ومَلاذُ اليَاسمين .. ولَكن لَيست كَحوران، مَلاذ القَمحِ والزَيتون، والأهلِ الطَيبين.

الضَياع في كُلِ مكَان هُنَا ..

لكنَّ قَلبي وَحدهُ لم يَضِع ولم يَعرف الخُنوع ..

شُبابٌ بِأعمارِ الزُهورِ، فَتَياتٌ أشهَى من خُبزِ جَارتنا، وكُلُ شَيءٍ يَلمع، وبَريقهُ لا يَهدأ، ولَكنَ الطفلَ الذِي في دَاخلي والوَدِيعة التي استودعها أبي عِندَ الله لم تَزِل و لم تَضِع ..

لأنَنَي في كَنفِ رَحِيمٍ لا تضيع وَدَائعَهُ ..

اكتَفيتُ بِالخَلوة بَينَ غُرفتي الجَامِعية ومَكتَبةِ الجَامِعة، فَلا صَدِيقَ لَي سِوى دُروسِي ومُحَاضَراتِي وسجَادَة صَلاتِي ..

نَعم شَعرتُ بِالراحة لأنَنِي لم أُضع تَعب ذَاكَ الرَجُل الذِي رَاح يَنحنِي مِراراً وتِكراراً، فَهنَا لا أمَان لأحد، لأنَ اللهو من أسَاسِياتِ الطَلَبَة، وإضَاعَةُ الوَقتِ من أهم أسبابِ الفَشَل ..

ونُزَلاء هَذا المَكَان لا تُوحِي وجوههم بِأنَهَا أتَتَ لِتنهَلَ من العَلمِ، لأنَ النَوايا غَارِقُة بِالشَهواتِ، وحَتى تَفَاصِيل

وجوهِهِم وطَرِيقة ارتِدَائِهم لِثِيابِهم وتَسرِيحة شَعرِهم فِيهَا من النِفاقِ والبَهرجة ما يدعوكَ للشكِ بالغايةِ التي من أجلها وُجدَ هذا المكانُ

لم أعرف ولا أُريد أن أعرف من دِمشق سِوى مَسجد البَرامِكة والجَامِعة والسَكنَ الجَامِعي وكَراج بابِ مُصَلى الكَبير الذِي ينقلنِي لقَريتي ..

عِشتُ أولَ أسبوعٍ في تَصَالح تَامٍ مَع نَفسِي، لا أُرِيد أن يَعرفني أحد ولا حَتى أتعَرف على أحد، و لَكن كَانَ لباسِي البَسِيط يلفتُ الإنتِباه، وهُنَاك من كَان يَسخر مني ..

هَيهَات أن أتَأثَر بِأحد ..

فَأنَا ابنُ أبي الذِي لا يَستَحي سِوى من اللهِ وضَميرهِ، ولأنهُ أبي فَأنَا أفتَخر بهِ، هَل تَعلم بِأنَ الشَوقَ قَتلني لِرؤيته، خَمسَةُ أيامٍ من الدِراسَة والمُحَاضَرات والتَعَبِ ..

حَاولتُ مِراراً وتكراراً الإتصَال بِهاتفِ جِيرانِنَا من الهَواتِفِ العَامة التي في الشَوارعِ كي أكلمه، وبَعدَ جُهدٍ جَهيد ..

ـ ألوو ألوو ..

ـ أيوا مِين معي .. !؟ ..

ـ ابن أبو صالح الحريري أتمنّى أن تنادوا أبي كي أُكلمَه، أنا صالح

ـ أهلاً وسهلاً بالحكيم .. حيّاك الله وحماك، وفتحَ عليكَ فتوحَ العارفين، انتظرني بينما أناديه

مَضَت أربَعُ دَقائق بِتَوقِيتِ اللهَفة .. جَاءَ صَوتُهُ من بَعيد عَابِراً كُلَ قَنواتِ الشَوقِ ..

ـ ألوو .. ألوو .. يابَّة يا صَالح .. كَيفك يَابَّة .. كَيف حالُ صحتك ! .. كيف حال دراستك .. أنا مُشتَاق لَكَ يا يابّة ..

لم أستَطِع ابتَلاع اختِنَاقِي و شَوقِي .. فمَا إن أتَاني صَوتُهُ حَتى فقدتُ صَوابي وانهَرتُ على سَمَاعةِ الهَاتف باكياً ..

أنَا مِنهُم ..

جَائعٌ لرَائَحةِ خُبزِهم ..

فَقَيرٌ لِرؤيةِ ابتسَامَاتِهم البَسيطة ..

لا أستَطيع أن أتَجردَ من طَيفِهم، لأنهُم دِثارِي ورِدَائِي وشَمسِي ودفئِي ونُقطة الضَوءِ عندي، أُرِيدُهم بِحَنَانِهم وبَسَاطَتِهم ورَائِحةِ خَيرهِم وبَرَكتِهم ..

ـ يابَّة أنَا بَخَير .. بِخَير ..

أصواتُهم في دَاخِلي، وبَينَ شَقوقِ بُعدِي، أصواتُهم كبَلسمٍ لا تعرفُ التَلون، لأنَ لَونَهُم وَاحد .. هو لَونُ النَقاءِ والطَهَارة

هُم أبنَاءُ الأرضِ، وحُجرةُ الزَيتونِ واللوزِ ..

ـ يابَّة نَحنُ نَنتَظِركُ يومَ الخَمِيس، أمك ستصنعُ لك طعامك المفضّل ..

كَأن قَلبهُ يَقول :

أنَا مُشتَاقٌ لكَ يا بني، وضَائِعٌ من دونك ...

و أنَا ضَائع أيضاً يا أبتِي ..

هَذا العَالم لا يُشبهُنِي، وهَؤلاء النَاس ليسَ بَيني وبَينهُم قَواسِم مُشتَركة إلا أنهُم من بَنِي البَشَر، وحَتى الهَواء المُغَبرِ بِدُخانِ السياراتِ والمعَامِلِ لَيسَ هَوائِي ..

أنَا بِحَاجة إلى أُوكسِجِينِكم لأتوضَأَ بِهِ، بِحَاجة إلى نورِكم كَي ألتحفَ بِقُمَاشِهِ، بِحَاجة لِمَائِكُم حتى أرتَوي من طَهرِكُم .. هَذا العَالمُ لَيسَ على مَقاسِ أحَلامِي .. لأنَكُم أنتُم أحَلامِي وكل آمَالي ..

كَانَ يَنتَظِرُني ..

ذَاكَ الجَبلُ الشَامِخ ..

كَأنَ هَذا الريف مُلكُهُ، يُراقِبُ الحَافِلاتِ القَادِمة من خَلفِ السَراب، ويُفتِشُ أرقامهَا بَحثاً عن رَقمِي السِري، وكَأنَ كُلَ شَيءٍ لهُ ..

الطُرقاتُ المُجردة من الرَاحِلين ..

الأرصِفة التُرابِية الخَالِية من الحَنِين ..

المَركَباتُ الحَدِيدية المَحشوة بِالقَادِمِين ..

و أشَياء أخرى .. كَأوراقِ التَقوِيم .. أوراقٌ بِأرقامِهَا التي لا يبالي أحدٌ بها، مُسمرة على مُوقدِ التَرقُبِ، وفي كُلِ يَومٍ تُنهشُ ورقة، ورَقةُ الأشواقِ الخَرِيفية في رِيفنَا الخَالي من طِفلٍ كَان يَلعبُ هُنا ..

لم نَعرفْ من اللعبِ سِوى قِطعَةٍ من الشَرفِ خَلفَ قَريتنَا، ألا وهيَ قِطعةُ الأرضِ العَامِرة بِبركَةِ وَالدِي، سَبعٌ وثَلاثُونَ طَية على تَجَاعِيدِ الوَجهِ، تَحكي قِصةَ أبٍ لم يَعرف النَومَ يَوماً إلا وقَلبهُ عَالِقٌ بِفتى يُدَعى :

صَالح الحَريري ..

أنَا .. تِلكَ النُطفة التي انحدَرت من صلبهِ، ولَكنَهُ عَجنهَا بِحكمتهِ وحِنكَتهِ، حَتى جَعلَ منهَا رَجُلاً بِشَاربين رَقِيقَين، ومِعطفٍ قَدِيم كُنت أؤثرهُ على كَثيرٍ منَ المعَاطِف، مِعطفٌ اشتَراهُ لِي أبي في أولِ شِتَاءٍ لي وأنا بَعِيدٌ عن مِدفأة الحَطب في بَيتنا الرِيفي ..

كَانَ ذَاكَ الرَجُل الذِي بَدا على وَجهِهِ الهَرمُ يجلس على حَافَةِ المَواقِف، لأنَهُ كَانَ يَرانِي حَافِلتهُ ومِحفظَتهُ ومَوقِفَهُ وإشَارَاتَهِ المُرورِية وأرقامهُ السِرية وبَحبُوحَة سَعادَتهِ ..

كَان يَضمنِي بعدَ كُلِ إيابٍ منَ العَاصِمة العَتِيقة، ومَا إن وَقفت الحَافِلةُ أمَامَ ظلِ الغُروب، حَتى رأيتني أنكبُ على يَدِيهِ مُقبلاً ومُستَنشقاً رَائَحةَ طُهرهِ ..

لا أعلم مَا هِي المَسَافة التي جَعلتني أقربَ إليه من حَبلِ الوريد، ولكنني وعلى الرغمِ من أن فترة إقامتي بالقرية كانت يوماً أو اثنين إلا أنني كنتُ أساعدُ والدي في الأرضِ

لأُثبتَ لها وجُودِي، كَمَا أُثبتُ وجودي في كُل مُحَاضَرة جَامِعِية ..

كُلُ الكَلمَاتِ هُنَا لَهَا حقٌ عَليكَ، كل الدَقائق والمَسَافات، وأوراق الزَيتونِ المُخضَرة، وحَتى حَنان أُمي بِثوبهَا التَقلِيدي وشَنبرهَا وعُصبة رَأسِهَا التي هي في عَينِي أجمل من تَاجِ المُلوكِ وأبهَى من قُبعاتِ الأميراتِ ..

إنَ سَاعتي كَانت مَضبوطة على تَوقِيتهم، وراحتي مُقَيدة بعَودتِي إليهم ..

يا سَيدي ..

خَمس سَنواتٍ من الجِدِ والإجتَهادِ ..

خَمس سَنواتٍ وأنَا على هَذا الحال، وعلى طَريقٍ وَاحدٍ .. اوتوستراد دَرعا .. دمشق ..

كَانت الصَدمة أكبر ممَا كَانَ يَتوقعها أبي ..

حَصَدتُ أعلى العلامات واستوليت على المستوى الأول في كُلِية الطبِ البَشَري ..

إنها بركة دعاء الوالدين.

ذَاكَ السندُ القوي، والمرأة التي أرَاهَا كُلَ لحَظة، كان نَجَاحاً من الطِراز الرفيع، أذكُرُ لحظة خروج النتَائِجَ في السَنة الخَامِسَة ..

أذكُرُ كَيفَ حَلَ الشَيبُ ضَيفاً على شَعرِ أبي ..

أذكُرُ انحناءَ ظَهرِهِ، الذِي كُنتُ أراهُ تَقوِيماً لِحَياتِي، أذكُرُ تَرقَبهُ لِكُلِ مُسَافرٍ إلى دِمشق وكَيفَ كان يُحمّلهُ بِالخُبزِ الطَازج والحَلوى ..

ـ لمن هَذا يا أبا صَالح !! ..

بَالله عَليكَ يا عَمي أن تُوصل هَذهِ السَلة لِصَالح في السَكن الجَامِعي ..

أذكُرُ كَيفَ كَانَ يتَصلُ بِي من الهَاتف الذِي حَصَل عَليِهِ مُؤخَراً، ويَقول:

ـ يابَّة أُمك رَأسُهَا يُؤلمها، مَا الدواء الذِي أشتَريه لهَا !؟

كُنتُ أعلم بِأن لا شَيءَ يؤلمُها، ولَكنهَا لُغَةُ الحُبِ و اللهَفة.

أذكُرُ كَيفَ كَانَ يَأتينِي على حينِ غرةٍ، وأتذكرُ هندامَه الذِي أعتزُ بِهِ؛ بِسروالهِ ومعطفه العَسكري وسَلةِ القَشِ

المُحملة بِاللهَفة والحَنَانِ، أذكُرُ كَيف كَانَ يَحتفي بِقدومي ويَذبح في كُلِ قدومٍ لي خمسَ دَجاجَاتٍ تُطهى مَعَ اللبنِ والبُرغُلِ ..

أذكُرُ ابتِسَامَتهُ المَضمخةُ بِالمَهَابة وعِزةِ النفسِ ..

أذكُرُ كيفَ كَانَ يَصطحبني إلى مَضَافةِ المُختَارِ في قَريتنَا، ويُجَلسنَي بَجَانِبهِ مُتَفاخِراً بي ..

أنَا ابنهُ ..

أنَا نَبضهُ، وجُزءٌ منهُ، ولَكنِنَي في الحَقِيقة خَانَةُ التَكوِينِ في قَلبِهِ، سَاحَتهُ الأحادِية التي يُدِيرُ بِهَا كؤوسَ سَعَادَتهِ ..

خَرجت نتَائِجُ الطِبِ ..

وخَرجَت معها التعَاسة مِن بَيتنا، وعُمِّر البَيتُ بِالمَحبة وعلى رَأسنا رَجُلٌ قَوي، يَهابهُ القَاصِي والدَانِي، رَجُل يُطلِقونَ عَليهِ:

أبو صَالح الحَريري ..

ثَلاثة أيامٍ من الفَرح، على أكتافِ دَبكتنا.

وقَرعُ الطَبلِ قد وَصَل صوته إلى أقصَى قُرانَا، والوَافِدونَ مُحملونَ بِالتهَانِي والحُبِ .. كانت كَلمات لا تُنسى دَخلت كُلَ بَيتٍ شَربَ من لَبنِ حوران، وقَصائَد لا تَزول علِقت بمسامعي :

رُشّ الفَرح دَارنَا ..

يا مِين يَهانِينَا ..

و لَكنَ الهنَاءَ لم يَتم، لأنَ مَا حَدَثَ في الوطن أكبر بِكَثَير من أن نَعيشَ الهنَاءَ بِتَفاصِيلهِ البَسِيطة ..

عَملتُ خَمسَ سَنواتٍ في المَشَافي العامة ..

أعُالجُ الجَرحى، بَعد أن أخرجتُ أهلي من تِلكَ الأرض الطَيبة واستَقرّوا في عمّان عاصمة الأردُن ..

اشتاق لِي ذَلكَ الرَجُل ..

ـ يابَّة .. و اللهِ حَرام .. خَمس سَنواتٍ و لم أرَك ..

كَانَ يَبكي بِحُرقة، لم يَبكِ حزناً على الأرض ولا على المَاضِي، بَل إن الشَوقَ أبكَاهُ، حَتى أشفقتُ عَليهِ وأشفقتُ على نفسي ..

شَابٌ بِعُمرِ الحَربِ، لم يَتزوّج أُنثَى، بل تَزوجَ قَضيةَ وَطن، لم يُنجب طِفلاً، بَل أنجَبَ حُلماً، عَادَ بِهِ الشَوقُ إلى وَالدِهِ في الأردن بِكَلمة:

عُونَك يابَّة ..

لَقد سَمعَ صَالح الحَريري بُكَاء أبيه، و لَكن بَعد غَياب خمسِ سَنواتٍ من الحَربِ والغِياب، لأول مَرة يَراهُ يبكي بِحُرقة ..

هَل هذهِ دُموعَ الخَوف ! ..

أم دُموعَ الشَوق ! ..

أم عَادَ ذَاكَ الرَجُلُ طِفلاً ! ..

يا أبو سَعد .. هذا أبُوي.

أتمَمتُ رِواية :

عُونَك يابَّة ..
في بَلَدِ الحُرِية والدِيمُقرَاطِية : النَمسا، في عَاصِمَةِ البِيانو والكَمنجَة : فيينا،
في مَقهى J.HORNIG في الحي السَابع ..
السَاعة : 00 : 03 ، ظُهراً بِتوقِيتِ الشَوقِ إلى أبي ..
مِن تَارِيخ : 19 / نُوفَمبر / 2017